الحياة الاجتماعية في عهدالفراعنة

تأليف

ليونارد كوتريل

ترجمة

شفيق فريد

تقديم ودراسة

د.فؤاد عبد المنعم

الكتاب: الحياة الاجتماعية في عهد الفراعنة

الكاتب: ليونارد كوتريل

ترجمة : شفيق فريد

تقديم ودراسة : د. فؤاد عبدالمنعم

الطبعة: ٢٠١٩

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة

جمهورية مصر العربية

هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥

فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣

E-mail: news@apatop.comhttp://www.apatop.com

دار الكتب المصرية

فهرسة إثناء النشر

كوتريل، ليونارد

الحياة الاجتماعية في عهد الفراعنة/ ليونارد كوتريل،ترجمة : شفيق فريد، تقديم ودراسة: د. فؤاد عبدالمنعم– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

١٣٩ ص، ١٨ سم.

الترقيم الدولى: ٠ – ٨٦٣ – ٤٤٦– ٩٧٧– ٩٧٨

أ – العنوان رقم الإيداع : ٢٠٨٩٣ / ٢٠١٨

الحياة الاجتماعية في عهدالفراعنة



مقدمة

لا يتوجه الكاتب البريطاني ليونارد إريك كوتريل (٢١ مايو ١٩١٣– ٦ أكتوبر ١٩٧٤) بكتبه للقارىء المتخصص أو لذوي الاهتمامات الأكاديمية، بل هو ينتمي لذلك النوع من المؤلفين الذين يخاطبون القارئ العام، الهاوي أو غير المتخصص، فيقدمون له المعلومات الكاملة والأفكار العميقة بلغة بسيطة لا تتعالى عليه وتراعي عدم تخصصه، لذلك لم يصنف أبدا ضمن المؤرخين رغم أنه قدم قرابة الأربعين كتابا في التاريخ، كما أشرف على تأليف "الموسوعة الأثرية العالمية" التي اشترك في تأليفها ثمانية وأربعون عالما أثريا.

وهو ككاتب لم يلق بالا لمسألة التصنيف كان يكفيه الإقبال الكبير من القراء على كتبه سواء في طبعاتها باللغة الإنجليزية أو في ترجماتها للغات أخرى من بينها لغتنا العربية. مما جعله مثالا لما يسمى بالكاتب الشعبي الذي تنفد نسخ كتبه سريعا، فالقراء يتوقعون منه دائما أن يمنحهم ما يفيدهم ويمتعهم.

ولد الكاتب والمؤرخ البريطاني ليونارد كوتريل في عام ١٩١٣ في مدينة ستافورد شاير بإنجلترا. كان والده مهندسًا معماريا، وهو الذي أثار اهتمامه بالتاريخ القديم، فقد اعتاد على زيارة الأديرة والمباني الأثرية القديمة، وكان يحرص على اصطحاب ابنه معه. وقد ذكر كوتريل في حوار معه أن عشقه للتاريخ والآثار ولد حينما رافق أبيه في زيارة لدير توكسبوري القديم، أشار والده إلى السقف وقال: "رفعه رجال حقيقيون، لكل منهم قصته وحياته التي نسيت لكن آثار أصابعهم أكاد ألمسها على ذلك السقف". تلك الملاحظة جعلته كما قال "أدركت للمرة الأولى في حياتي أن باستطاعتي أن ألمس الأشياء التي حدثت منذ نحو ألف سنة أو أكثر، فأولئك البشر الذين كنت أقرأ عنهم، مثل وليام الفاتح كانوا أناسًا حقيقيين".

وكان كوتريل يطمح في أن يعمل صحفيًا بعد التخرج، لكنه وجد نفسه مؤلفا للإعلانات في إحدى الوكالات، وهو عمل كرهه. ومع ذلك فقد منحته وظيفته تلك فرصة ليغمر نفسه خلال وقت فراغه في كتب التاريخ، أو ليتجول بدراجته عبر مناطق الريف الإنجليزي القريب نسبيا من محل سكنه ليزور المواقع الأثرية التي تنتمي للقرون الوسطى. وفي إحدى هذه الجولات فكر أن يكتب سلسلة مقالات عن تلك الأماكن، واستطاع أن ينشرها في الثلاثينيات من القرن الماضي، ولاقت إقبالا من القراء رفع من توزيع المجلة ودفع هيئة الإذاعة البريطانية (BBC) في عام ١٩٣٧ لتكليفه بإعداد برنامج وثائقي عنها. كما تم تكليفه بعد ذلك بكتابة وإنتاج أفلام وثائقية عن الحرب.

وفي عام ١٩٤٤ أصبح مراسلاً حربياً لهيئة الإذاعة البريطانية، وقام بتغطية عمليات سلاح الجو الملكي في إيطاليا.

وبعد الحرب، تمكن من إقناع هيئة الـ (BBC) بالموافقة على إنتاج سلسلة من الأفلام الوثائقية حول الاكتشافات الأثرية العظيمة، فسافر إلى الأهرام ووادي الملوك والمواقع التاريخية الأخرى في مصر، وهي السلسلة التي تحولت فيما بعد لقائمة الكتب الطويلة التي عكف على تأليفها حتى توفي في عام ١٩٧٤. والتي جعلته "أحد سادة التاريخ الشعبي" كما كانوا يطلقون عليه في الصحافة الإنجليزية.

وكان كتاب "فراعنة مفقودون" الصادر في ١٩٥٠، أول حلقات سلسلة كتب ليونارد إريك كوتريل عن مصر القديمة، تلك السلسلة التي طالت لتشمل اثني عشرة حلقة، أما كتاب "الحياة الاجتماعية في عهد الفراعنة" الذي تشرفت "وكالة الصحافة العربية – ناشرون"، بأن تضعه بين يدي القارىء فهو ثاني حلقات تلك السلسلة، وبالرغم من ذلك يمكن قراءته بعيدا عن كتب السلسلة، بشكل مستقل للضوء الذي يلقيه على تفاصيل الحياة اليومية كما تم تصوره لعائلة فيرزيررخماير، الذي عمل كوزير فترة حكم تحتمس الثالث في عام ١٥٠٠ قبل الميلاد.

يلتقي القارئ مع رخماير ويذهب معه في مهامه الرسمية؛ فالكاتب يخاطب قارئه "دعنا الآن نتخيل أننا مسافرون عبر مصر في قارب أحد هؤلاء الموظفين، إننا في عصر الأسرة الثانية عشرة (١٥٨٠–١٣٢١ ق.

م) في عهد تحتمس الثالث ونحن نركب قارب الوزير رخماير، وهو شخص حقيقي تعتبر مقبرته في طيبة من أجمل مقابر هذا العهد، ومع أن هذه الرحلة وهمية، إلا أنه كان من السهل جدًا القيام بها آنذاك، إذ إن التفاصيل التي سنسردها عن الرحلة مسجلة بالدقة على جدران مقبرة رخماير"، هي رحلة بطول مصر عبر قارب نيلي، لكن يسير عكس اتجاه النهر الذي يجري من أقصى جنوب البلاد حتى أقصى شمالها، فالرحلة تبدأ من الشمال وتنتهي بالوصول إلى العاصمة في الجنوب، فيتهلل وجه الوزير فرحًا بالعودة إلى وطنه وبيته بعد غيبة طويلة

ينتهز الكاتب الفرصة ليصف طيبة من خلال عيني الوزير رخماير "كانت المدينة منقسمة في الواقع إلى مدينتين يفصلهما النيل، فعلى اليمين سلسلة من المباني الحجرية الفخمة. إنها المعابد التي تجرى بها مراسم دفن الملوك الذين بدؤوا يدفنون في وادٍ منعزل على الجانب البعيد من التلال. ففي هذه التلال توجد مدينة موتى شاسعة وشاطئ صخري، أمامهما أرض منخفضة نثرت في أرجائها قبور النبلاء وأثرياء طيبة. وبين الشاطئ الصخري والنهر توجد قرى كبيرة، بها منازل مبنية بالطوب النيء، يقيم بها من يعملون في مدينة الموتى: المحنطون، صانعو التوابيت، وصانعو أثاث المقابر، والحجارة الذين يحفرون الصخور لإنشاء القبور، والفنانون والنحاتون الذين يزينون جدران المقابر. وعلى مقربة من المعابد يقيم الكهنة الذين يقدمون القرابين بانتظام لأرواح الموتى الذين يرقدون في هذه المدينة، مدينة الأموات".

فهل كانت طيبة مدينة أموات، وهي عاصمة العالم وقتها، تلك فقط نصف الصورة أما النصف الآخر الذي تكتمل به الحقيقة فلا يغفله الكاتب الذي ينبه قارئه "ولكنك إذا أدرت بصرك إلى اليسار رأيت صورة مغايرة تمامًا، صورة مدينة الأحياء، المدينة الصاخبة الحافلة بالحركة والنشاط، تصل إليها وتخرج منها قوارب ذات أغراض منوعة: سفن تجارية تفرغ الحبوب والمنتجات الأخرى، وسفن نقل محملة بالكتل الحجرية لبناء المعابد والقبور، وسفن أجنبية قادمة من سوريا وجزر الأبونيان، وسفن حربية، وسفينة فرعون الذهبية وسفن نبلائه".

وهكذا يأخذ الكتاب بيد القارئ في جولة رائعة في عالم مصر القديمة، ليقدم له لمحة عامة عن التاريخ المصري، ومدينة الموتى، وطيبة وادي الملوك، وبناء الأهرام، وينظر إلى حياة وأزمنة قدماء المصريين، بما في ذلك أعمال الحرفيين والعمال، والصيد، والإجراءات الجراحية، ويقدم قائمة كاملة ببليوغرافيا وقوائم السلالات المصرية.

لكن تلك مجرد صورة تقريبية عن مصر، كما كان يراها موظف كبير من الأسرة الثامنة عشرة، يفطن المؤلف إلى أن الصورة لا تزال قاصرة وهو يريد الشمول، لذا يدع الوزير في قصره ليتجول هو في بيوت أهل طيبة واصفا طرق بنائها وتصميمها فيبين أن الفناء من خصائص جميع المنازل المصرية باستثناء منازل الفقراء، ففي بلاد كمصر تسطع شمسها دائمًا يكون الفناء هو المكان الطبيعي للحياة اليومية؛ ولذلك فإنك تشاهد في جميع المنازل النموذجية تقريبًا فناء ذا جدران أمام المنزل، أما إذا كان

المنزل كبيرًا فإنك تجد على جوانب هذا الفناء غرفًا تطل عليه، وغالبًا ما تجد خزان الماء في منتصف الفناء. وقد صممت منازل قدماء المصريين بطريقة تصون حرمتها؛ ولذلك فإن جدرانها عالية جدًا ونوافذها صغيرة جدًا، وغالبًا ما تكون المطلة على الفناء بلا نوافذ تطل على الخلاء؛ اكتفاءً بنوافذها الكبيرة التي تطل على الفناء. ويلتفت كذلك إلى أن المصريين برعوا في الطلاء إلى درجة مذهلة، وفي المساء وكان قدماء المصريين يضيئون منازلهم بمصابيح زيتية، وكانوا يصنعون بعض هذه المصابيح من المرمر الرفيع الشفاف المزخرف من الداخل بالرسومات الملونة التي تظهر من الخارج عند إشعال المصباح، وفي منازل الملوك والأثرياء كان الذهب والفضة يستعملان في زخرفة الأثاث ولا يفوته وصف الأثاث والأطعمة وغير ذلك من تفاصيل حياة المصري القديم.

لكل ذلك اكتسب الكتاب قيمته فقد تمتع صاحبه بنظرة شمولية تنطلق من قناعات موضوعية، مثلا بدأ الكتاب بالتأكيد على أن "أخلاق الناس تتشكل تبعًا للأرض والمناخ اللذين يعيشون فيهما" وتلك حقيقة أكدها علم الاجتماع، ويرى صاحب الكتاب إنها تنطبق أكثر ما تنطبق على الشعب المصري الذي عاش لسبعة آلاف عام في وادي ضيق تحف به الصحراء من كل جانب، وبالرغم من أن الأمم الأخرى كلها تحولت وتبدلت خصائصها مع مرور الزمن ففقدت كثيرًا من صفاتها الأصلية، بينما بقيت مصر على حالها؛ إذ ما زالت الأحوال نفسها التي كانتتتحكم في حياة الملايين الذين عاشوا تحت حكم الفراعنة قائمة حتى الآن إلى حد كبير، ولذلك فهو يقدم أولا صورة "لهذه البلاد غير العادية التي لا مثيل لها في العالم كله".

وهو كذلك لا يقدم المادة التاريخية للقارىء بشكل جاف قد يناسب دارس التاريخ لكن سيكون منفرا للقارىء العام غير المتخصص لذلك رأيناه يلجأ لحيل سردية كما لو كان روائيا يشيد بناء تخييليا، لكنه استعان بالخيال كتصوير للرحلة النيلية مع الوزير وجولته في بيوت طيبة قبل أن يعود لحضور حفل في قصر الوزير. قبل أن ينتهي بمنزل الأبدية حيث المقابر التي بناها المصري القديم من الحجر لتبقى على العكس من منزل الحاضر المبني بالطين، لذلك لجأ المصري القديم إلى التحنيط الذي برعوا فيه، والذي بسطه الكتاب للقارئ.

وأخيرا بالرغم من مرور أكثر من ستين عاما على صدور أولى طبعات الكتاب بلغته الأصلية، توالت خلالها جهود علماء الآثار المصرية أو علماء المصريات عموما، وتواترت كشوفهم لتميط اللثام عن الكثير من جوانب الحياة عند قدماء المصريين إلا أن كتاب "الحياة الاجتماعية في عهد الفراعنة" لا يزال واحدا من أهم المصادر في هذا الموضوع. ليس فقط لغزارة المعلومات التي يمد بها القارىء ولكن أيضا لأن مؤلفه تحرى الدقة فيما كتب، واعتمد على عشرات الدراسات التي قام بها علماء التاريخ والآثار، خصوصا في تفسير اللوحات الجدارية التي ترسم تفاصيل الحياة في تلك الفترة مما جعله مرجعا لا غنى عنه لكل من يحب معرفة تفاصيل الحياة في تلك الفترة من فجر التاريخ.

د.فؤاد عبد المنعم



الفصل الأول

الأرض والقوم والآلهة

من الحقائق القديمة أن أخلاق الناس تتشكل تبعًا للأرض والمناخ اللذين يعيشون فيهما، فإذا صح هذا القول بالنسبة لشعب كالشعب الإنجليزي الذي غزا بلاده منذ أقل من ١٥٠٠ سنة، أو بالنسبة للأمريكيين الذين استوطنوا قارتهم الشاسعة منذ أجيال قليلة، فإنه –أي هذا القول– أصدق بالنسبة للمصريين الذين عاشوا في واديهم الضيق، الذي تحف به الصحراء منذ أكثر من ٦٠٠٠ سنة! كذلك فإن الدول الأخرى تغيرت وتطورت على توالي الأجيال ففقدت كثيرًا من صفاتها الأصلية، بينما بقيت مصر على حالها؛ إذ ما زالت الأحوال نفسها التي كانت تتحكم في حياة الملايين الذين عاشوا تحت حكم الفراعنة قائمة حتى الآن إلى حد كبير، ومن ثم فإنه من الضروري –قبل أن نحاول وصف الشعب– أن نقدم صورة –ولو مجملة– لهذه البلاد غير العادية، التي لا مثيل لها في العالم كله.

منذ أمد غير بعيد كنت أستقل القطار في طريقي من الأقصر إلى القاهرة، وكان الوقت ليلًا، فرحت أتأمل ما حولي برغم أن هذه الرحلة لم تكن أولى رحلاتي من الأقصر، ولم يقع بصري إلا على ما ألفته من مناظر في رحلاتي السابقة. فالمسافة بين القاهرة والأقصر ٤٠٠ ميل، يقطعها القطار في عشر ساعات، ولا ترى العين فيها إلا حقول القطن المترامية

ومزارع قصب السكر، والقرى المشيدة بالطوب النيء وأشجار النخيل. وعلى يمين هذا الشريط الزراعي وعلى يساره تلال صحراوية داكنة اللون، تقترب منك حينًا وتبتعد حينًا آخر، ولكنها لا تغيب عن ناظريك أبدًا.

وهكذا كنت كمن يراقب فيلمًا عن رحلة تتكرر مناظرها، وسرحت بخاطري، وسرعان ما بدت الصور تتشكل في ذهني. تخيلت أن إلهًا يتطلع من سمائه إلى هذه الأفعى الخضراء، وادي النيل، الذي يتلوى عبر الصحراء بطول ٦٠٠ ميل، بينما لا يزيد عرضه على أميال قليلة في بعض الأماكن، ويقل عن ميل في أماكن أخرى، وحيث تمتد من الغرب مساحات لا نهاية لها من الرمال والصخور (الصحراء)، ومن الشرق الصحراء العربية التي تمتد عدة مئات من الأميال إلى أن تصل إلى البحر الأحمر.

وإذ كان يرى القمر متلألئًا ليلتذاك، أدركت أن إلهي السماوي سيرى أضواء متألقة على طول شاطئ النهر، سيرى بلادًا كقنا وأسيوط والبلينا، ولكنه لن يرى مئات القرى المعتمة، التي ينام فيها ملايين الفلاحين المكدودين في بيوتهم المشيدة من الطوب النيء حتى يحين الفجر، فيخرجون إلى حقولهم المسطحة ليزاولوا عملهم الخالد.

ترى كم مليونًا من البشر منحهم هذا الثعبان الأخضر الحياة خلال مئات القرون الماضية؟ لا ريب أن إلهي السماوي –وهو إله خالد– يذكر ذلك الوقت الذي لم يكن هذا الشريط الصحراوي الأخضر معروفًا فيه إلا للحيوانات والطيور والزواحف فقط، عندما كانت الأسود والضباع والقردة

والذئاب تحوم حول حواف الصحراء، وعندما كان فرس البحر يخوض الماء، بينما كانت أسراب هائلة من الإوز ترتفع في الجو إلى ما فوق مستنقعات البردي، قبل أن يعرف الإنسان هذا الوادي.

ولا ريب أن إلهي رأى الغاب وهي تتحول قرنًا بعد قرن إلى أرض زراعية، ورأى لأول مرة ظهور المدن المنظمة على هذا الكوكب تحف بها الحقول، وتشقها الطرق والقنوات، بينما كانت بقية الجنس البشري، معظمه يتنقل من منطقة صيد إلى منطقة أخرى، إنهم برابرة لا يجيدون شيئًا غير قتل الحيوانات حتى لا يهلكوا جوعًا.

ثم تمضي الأيام حتى ٤٥٠٠ سنة ماضية، حينما رأى إلهي الأهرامات، وهي ترتفع نحو السماء مبعثرة كالأبنية التي يشيدها الطفل بطول ثلاثين ميلًا على الشاطئ الغربي. إنها المنازل الخالدة التي بناها الملوك الذين كانوا يطمعون في أن يصبحوا آلهة، ورأى أيضًا مدينة ممفيس العظيمة بقصورها ومعابدها وحدائقها، وغيرها من المدن المنشورة على طول الوادي من الدلتا إلى حدود النوبة. وبعد ذلك بخمسة عشر قرنًا رأى إلهي طيبة المدينة الإلهية، وهي تنهض تحت حواف تلال طيبة المقتطعة، ولو أطال إلهي التأمل إلى أسفل لوقع بصره على بريق ينبعث من عربة فرعون الحربية الذهبية، والغبار الذي يتصاعد من خلفها تثيره أقدام طوابير الجنود الذين يسيرون خلفه، وهم يزحفون جنوبًا لتأديب النوبيين، أو شمالًا بشرق لقتال الحيطيين.

وهو يذكر ولا شك السفن الكريتية حينما كانت تتحرك في النيل في طريقها إلى طيبة حاملة الهدايا لفرعون، ويذكر أيضًا تلك السفن مختلفة الأشكال وهي تتحرك فيما بعد، يسيرها رجال مقدونيا الشرسين بقيادة ثوار الإسكندر الأكبر.

كما رأى مجيء الرومان، وراقب كتائب حادريان وهي تعسكر بجانب ممنون بالأقصر، ثم تنصرف إلى مزاولة أتفه الأعمال بين المقابر التي أنشئت منذ ألف عام، ثم يحفر رجالها أسماءهم على الجدران مثلما كان السائحون يفعلون في القرن التاسع عشر.

وبعد ذلك جاءت جيوش المسلمين بجيادها وأعلامها، وبعدها جيوش الترك، فجيوش نابليون، فأسطول نلسون في أبي قير، ثم جاء جوردون ليزحف جنوبًا حيث لقي مصرعه في الخرطوم. وبعدئذ ومضت المدافع عند العلمين، كل هذا رآه إلهي، وأما الآن فإنه يرى -ولا ريب- ذلك القطار الذي استقله وهو يزحف شمالًا بجانب النهر المتعرج.

إن هذا هو السبب الذي يجعل هذه الرحلة تخلب لبي، برغم إنني قمت بها عدة مرات. فأنت حينما تستقل القطار من الأقصر إلى القاهرة، تسافر عشر ساعات عبر أكبر من نصف تاريخ الجنس البشري.

هناك إذن وجدت تلك الأرض الضيقة المحصورة التي تحف بها الصحراء القاسية، وإن أينع فيها الزرع بسبب الطمي الذي يحمله النيل إلى

حقولها عند فيضانه كل عام في هذا الوادي الضيق، ومنذ أكثر من ٣٠٠٠ سنة قبل مجيء المسيح، ازدهرت أقدم حضارة عرفها العالم.

إن الأهرامات والمقابر والمعابد والمسلات تتحدث عن قوة ملوكها، وأسرار ديانتها، وامتياز ثقافتها. وإذ كان المصريون القدامى يحبون الحياة، ويتلهفون على استمرارها بعد انتهاء العالم، فقد ترك أثرياؤهم صورًا وتماثيل في قبورهم تبين حرفهم ومهنهم بوضوح، كما تبين الملذات التي استمتعوا بها في حياتهم، وكانوا يتلهفون على استمرارها في الحياة الأخرى.

لقد تركوا لنا أيضًا أمثلة كثيرة من أثاثهم وثيابهم، ونماذج لمنازلهم وأسلحتهم الحربية، وقواربهم وألعابهم ووسائل تسليتهم، ووثائق مختلفة، فمن تواريخ رسمية ونصوص دينية واتفاقات تجارية، إلى تمارين مدرسية وقصائد شعرية وقصص خيالية.

لكل هذا ظل المصريون أكثر الأجناس غموضًا في نظرنا، ويرجع ذلك جزئيًا إلى أن الغموض اكتنف هذا الشعب إلى حوالي ١٢٠ سنة ماضية، عندما بدئ بفك طلاسم اللغة الهيروغلوفية، كنا نراهم شعبًا خلف آثارًا وتماثيل ورسومًا، ولكن لفئة مجهولة.

صحيح أن المؤرخين الكلاسيكيين والرحل، أمثال هيرودوت وبليني وديودورسسيكولاس، تركوا أسفارًا عن رحلاتهم إلى مصر، ولكن هذه الأسفار كانت تدعم الأسطورة؛ لأنه وإن بدت ديانة المصريين وعاداتهم التي وصفها هيرودوت غريبة في عينيه، فإنها كانت تبدو –ولا ريب– أكثر غرابة

في نظر مؤرخي القرن التاسع عشر. وحتى عندما بدئ بترجمة اللغة الهيروغلوفية ترجمة ركيكة، تبين أن مجموعة الأسفار والمخطوطات لم تهتم أساسًا بالمصريين كبشر مثلنا، يجيدون وينجبون أطفالًا ويعملون ويستمتعون بالأسباب الرياضية وضروب التسلية، وإنما اهتمت بهم باعتبارهم جنسًا عليلًا مكتئبًا تشكل فكرة الموت باله دائمًا، وتبدو ديانته مزيجًا من السحر والخرافات والآلهة ذات الرؤوس الحيوانية، والمسخ التي تختلف عن آلهة وإلهات الإغريق، من حيث أنها لا تتصف حتى بالصفات البشرية التي نتمتع بها.

كان ذلك قذفًا في حق قدماء المصريين الذين يبدو أنهم كانوا –كأحفادهم الحاليين– شعبًا يحب المرح والحياة، بيد أنه ليس من الصعب علينا أن نعرف كيف اكتسب قدماء المصريين ما نسب إليهم بلا حق، من أنهم كانوا قومًا ميالين للاكتئاب والغموض.

لقد كانوا جميعًا يأملون بحماس أن تكون هناك حياة أخرى شبيهة بالحياة الحالية بالنسبة إليهم جميعًا، دون ملوكهم (الآلهة)، ولكي يستمتعوا بهذه الحياة الثانية، ظنوا أنه من الضروري أن يبنوا لأنفسهم –إذا استطاعوا تدبير المال اللازم لذلك– (منزلًا خالدًا)، عبارة عن قبر يبقى قائمًا إلى الأبد، وأن يضعوا بداخله –سواء بالفعل أو بالتصوير– الأدوات التي سيحتاجون إليها لتجعل حياتهم مريحة وسعيدة، ملابسهم وأثاثهم وأدواتهم المنزلية، والقوارب التي سيسافرون بها في النيل السماوي، وأسلحة صيدهم التي سيستعملونها في صيد السمك، أودعوا هذه المقابر تماثيل أو صورًا

رسموها على الجدران، تمثل الخدم الذين سيتولون خدمتهم بعد موتهم، مثلما كانوا يفعلون في حياتهم.

إن هذا الاتجاه المادي نحو الموت هو الذي خلف لنا ذاك التراث الكبير من الأشياء الجميلة أو الغريبة، التي نراها في جميع متاحف العالم.

لقد بنى قدماء المصريين منازلهم من الطوب والطين، وهما مادتان تبليان بفعل الزمن؛ ولهذا اختفت من عالم الوجود، بينما بنوا مقابرهم لتظل قائمة أبدًا، ولهذا بقيت.

وينطبق هذا القول على المعابد العظيمة التي كانت آلهتهم تسكنها، وهكذا بقي معبد آمون الهائل في الكرنك، بأعمدته التي يبلغ ارتفاعها ٧٠ قدمًا وأروقته الضخمة؛ ليثير حيرتنا ودهشتنا، أما قصور الملوك ومنازل النبلاء بساحاتها وحدائقها وملايين المنازل الشعبية، فقد زال معظمها من عالم الوجود، ومن ثم فإننا إذا زرنا متحفهما المحلي فسنجد أن معظم الأشياء المعروضة به تحمل معنى دينيًا أو جنائزيًا.

ولكن الجهود التي بذلها علماء الآثار والمؤرخون أثمرت ثروة قيمة من المادة البشرية التي تثبت أن قدماء المصريين كانوا يؤدون أعمالًا أخرى، ويهتمون بأشياء أخرى إلى جانب عبادة آلهتهم أو الاستعداد للعالم الآخر. ومن هذه المادة ومن ملاحظاتي الخاصة، أرجوا أن أرسم صورة للحياة في مصر القديمة، في المعسكرات والقصور، وفي المزارع والمحاكم والمعابد، وفي المنازل أيضًا.

ولكني أرى أولًا أن أحذر القارئ من صعاب وأخطار معينة، فإن التاريخ المصري الذي نعالجه يغطي أكثر من ٣٠٠٠ سنة؛ ولهذا فإن من الصعب وصف حياة شعب كان يعيش منذ أكثر من ثلاثين قرنًا، ولو أن علمنا بأن قدماء المصريين كانوا قومًا محافظين جدًا، يجعلنا نعتقد بأن العناصر الأساسية في حياتهم لم تتغير كثيرًا. ولعل مما يدعم هذا الرأي أن طابع الحياة الزراعية في مصر اليوم لا يختلف كثيرًا عمّا كان عليه أيام مصر الفرعونية، وأن الأدوات التي يستعملها الفلاحون الحاليون تشبه إلى حد كبير تلك التي كان يستعملها أسلافهم، بل إن الآلات الموسيقية التي يستعملها الفلاح المصري الآن في ساعات فراغه القليلة تشبه الآلات المرسومة على جدران معبد طيبة.

وتجنبًا لكل خلط، حرصت على أن أذكر العهد الذي ترجع إليه الأمثلة التي يتضمنها هذا الكتاب، والتي تصور الحياة في كل من المملكة القديمة والوسطى والحديثة.

أما الخطر الثاني الذي أخشاه، فهو أن يعتقد القارئ خطأً أنه لما كان قدماء المصريين بشرًا مثلنا، لهم عواطف كعواطفنا، وأسرّة ينامون عليها مثلنا، ويرسلون أولادهم إلى المدرسة أو يلحقونهم بالجيش كما نفعل، فإنهم كانوا –ولا ريب– يشبهوننا تمامًا. وهذا خطأ كما قلت، إذ مع أنه صحيح أن الطبيعة البشرية تغيرت تغيرًا طفيفًا جدًا خلال ٥٠٠٠ سنة، إلا أنه برغم ما كان المصريون القدماء يتمتعون به من حضارة، فإن الفجوة التي

تفصل بينهم وبين المعتقدات البدائية كانت أضيق كثيرًا مما هي بيننا وبين هذه المعتقدات.

ومع أن ديانتهم كانت تشتمل على مادة أخلاقية، إلا أنها كانت حافلة بالسحر والشعوذة التي انحدرت إليهم منذ الأيام غير البعيدة التي سبقت ازدهار الحضارة الأولى على شاطئ النيل. في ذلك العالم عاش الأسلاف المتوحشون من قدماء المصريين في جو من الخوف، تحيط بهم قوات معادية كان ينبغي التغلب عليها، إما بالسحر أو مهادنتها بالتضحية بالدم.

إن القول بأن ديانة قدماء المصريين كانت تسيطر تمامًا على حياتهم ينطوي على بعض المبالغة، بيد أنه من المحتمل أن الدين لعب في حياتهم اليومية دورًا أكثر أهمية مما لعب في حياة الشعوب الغربية المتمدينة.

وما لم ندرك ذلك، وما لم نشحذ خيالنا حتى نستطيع أن نقرأ ما كان يجول في أذهان قدماء المصريين، فإننا لن نستطيع أن نفهمهم؛ ولهذا فإنني أعتزم التعرض لهذه الناحية الدينية الهامة، نظرًا للدور الكبير الذي لعبته في حياة قدامى المصريين.

في الإمكان الحكم على مدى تعقيد ديانة قدماء المصريين إذا عرفنا أن المؤرخين استطاعوا أن يميزوا في البانثيون المصري أسماء ٢٠٠ إله منفصل. فقبل أن تصبح مصر دولة موحدة في بداية الأسرة الأولى (٣٢٠ ق.م..) كانت مئات القبائل تعيش في حوض النيل، وكان لكل من هذه

القبائل آلهتها المحلية، وكان بعض هذه الآلهة من زعماء القبائل، وبعضها الآخر حيوانات أو زواحف أو طيور. وبعد توحيد مصر في عهد الملك مينا، أصبح إله المدينة أو الإقليم الذي جاءت منه الأسرة المالكة هو الإله الرئيسي أو إله (الدولة).

ففي المملكة القديمة –وهي عصر بناة الأهرام (٢٧٨٠–٢١٠٠ ق.م.)–كان إله الدولة هو رع إله الشمس، الذي تركزت عبادته في هليوبوليس، التي لم تكن تبعد كثيرًا عن العاصمة ممفيس.

وبعد ذلك بكثير، أي عندما حكمت مصر أسرة من طيبة، اشترك آمون (إله طيبة) مع رع في احتلال عرش الألوهية الرفيع، والواقع أن الاثنين أصبحا يعرفان باسم آمون–رع ملك الآلهة.

ولكن ذلك لم يؤدِ إلى تخلي المصريين عن مئات الآلهة الصغيرة المحلية، وإنما ظلوا يعبدونها في أقاليمهم فترة طويلة، إلى أن أدمجها الكهنة في بعضها بطريقة غريبة معقدة، لا ريب أنها حيرت المصري العادي مثلما حيرتنا.

كان أهم تطور ديني في المملكة الوسطى (٢١٠٠–١٧٠٠ ق.م.) هو ظهور مذهب أوزوريس، الذي استمر الناس يعتنقونه حتى العصر الروماني، وكان مذهبًا يتمتع بقوة تأثير على الجماهير تفوق قوة تأثير آمون–رع نفسه.

ولعل الفقرة الموجزة التالية تساعد القارئ على فهم الدور الذي لعبته أسطورة إيزيس وأوزوريس في حياة قدماء المصريين اليومية.

"كان لأسلاف قدماء المصريين –كما كان لمعظم الشعوب البدائية– أساطيرهم الشعبية التي تفسر أصل العالم، كانوا يعتقدون أن المحيط وحده هو الذي وجد في بداية العالم، ثم ظهرت على سطح هذا المحيط بيضة (وفي بعض النصوص زهرة) ولد منها إله الشمس. وكان لهذا الإله أربعة أبناء هم: جب، وشو، وتفنت، ونت. وقد ثبت جب، وشو، وتفنت أقدامهم في الأرض ورفعوا أختهم نت في الجو، وهكذا أصبح جب الأرض، وشووتفنت الجو، ونت السماء. وأنجب جب أربعة أولاد هم أوزوريس وإيزيس، ونفيتسوسث. وارتقى أوزوريس عرش أبيه، وحكم العالم بحكمة وعدل، تعاونه أخته إيزيس التي تزوجها. وقد أكلت الغيرة قلب سث بسبب ما كان أخوه يتمتع به من سلطان، فدبر مؤامرة للقضاء عليه، ونجحت المؤامرة، وقطع سث جثة أخيه أوزوريس إربًا، ودفنها في عدة أجزاء من مصر، أما الرأس فدفنه في أبيدوس. ولكن إيزيس المخلصة استطاعت أن تسترد أجزاء جثة زوجها المبعثرة، ونجحت بمعاونة ابن آوى الإله أنوبيس –الذي أصبح فيما بعد إله التحنيط– في تجميع الجثة. ولما فشلت في بعث الحياة فيها، انتقل أوزوريس إلى العالم الأسفل، حيث أصبح إله الموتى، وفيما بعد قاضي الأرواح. وحملت إيزيس ابنًا هو هوراس الذي ثأر لأبيه من عمه فيما بعد، فهزم الغاصب واسترد عرش أبيه".

اشتهرت هذه الأسطورة لدى المصريين جميعًا، ولم تفقد تأثيرها عليهم في يوم من الأيام بسبب شدة جاذبيتها، وأصبحت إيزيس المثل الأعلى للزوجة الوفية والأم، وهوراس الابن المثالي. وفي المملكة الوسطى تحولت الأسطورة إلى مذهب ديني، وأصبحت أبيدوس –وهي المدينة التي كان معروفًا أن رأس أوزوريس دفن بها– مكانًا يحج إليه الناس. فكان الآلاف يجيئون إلى أبيدوس كل عام ليشاهدوا تمثيل بعض مناظر من حياة أوزوريس، وليسيروا في موكب دفن جثة الإله في قبره المزعوم. وهكذا أصبحت أبيدوس من أهم الأماكن المقدسة في مصر.

***

مع أن تعقيدات الدين المصري العالي لم تكن تهم جماهير الشعب، ومع أن طقوس هذا الدين لم تكن تتبع إلا في معابد آمون–رع إله الدولة، إلا أنه من الضروري أن نتذكر أن هذه الآلهة وغيرها من الآلهة الصغرى تغلغلت تمامًا في حياة الشعب. والدليل على ذلك أننا نجد في جميع المتاحف ومتاجر العاديات في العالم تماثيل صغيرة من البرونز لآمون–رع وإيزيس وأوزوريس، وهاتور آلهة الحب والجمال، وبس الصغير البدين إله الموسيقى والرقص ومئات غيرهم. فقد كانت هذه الآلهة ترافق الناس كل يوم، وتحتل مكانة رفيعة في بيوت قدماء المصريين، تشبه المكانة التي تحتلها الآن تماثيل المسيح في بيوت المسيحيين.

إلا أن الفرق واضح بين آلهة قدماء المصريين وبين الأنبياء والرسل، ففي الأديان السماوية، ينطوي الناس جميعًا تحت هذه الأديان باستثناء واحد، فالبعض أنبياء نزل عليهم الوحي الإلهي، والبعض قديسين وشهداء، ولكنهم جميعًا بشر، حتى ولو توفرت في بعضهم صفات روحية تفوق صفاتنا.

أما بالنسبة لآلهة قدماء المصريين فقد كانت مخلوقات خارقة، زيوس ملك الآلهة، وبوسيدون إله البحر، وأفروديت إله الحب، وآريس إله الحرب.. وهلم جرًّا.

ومع أنهم خالدون وهبوا قوى خارقة، إلا أنهم ما زالوا بشرًا لهم أشكال البشر، وبهم ضعف البشر. فإذا تأملنا صور الآلهة المرسومة على البانثيون المصري لرأينا عجبًا، فهذا إله له جسم إنسان ورأس ابن آوى، وهذا آخر له رأس كبش تقف إلى جانبه امرأة لها رأس لبؤة، وعلى مقربة منها يقبع تمساح، هو بدوره إله مثل البقرة التي تقف على مسافة ليست بعيدة عنهم، بينما قبع الملك تحتها وهو يرضع اللبن من ضرعها. إنها هاتور إلهة الحب عند قدماء المصريين.

إن هذا التباين هو الذي يحير عقولنا، فهؤلاء قوم تثير مبانيهم وتماثيلهم ورسوماتهم دهشة العالم، قوم بنوا الأهرامات ومعبد الكرنك، وفهموا الفلك، وأجادوا فنون الهندسة الدقيقة، ومارسوا الطب والجراحة. وأنشؤوا نظامًا مدنيًا إداريًا ممتازًا، وغزوا وأداروا إمبراطورية امتدت في أحد

الأوقات من السودان إلى الفرات، وابتكروا طريقة رائعة للكتابة، واشتهروا بالحكمة التي اعترف بها حتى اليونانيون أنفسهم. ومع ذلك فإن هؤلاء القوم عبدوا القطط والثعابين، وكان الثور من آلهتهم الرئيسية، فكانوا يعبدونه وهو حي، فإذا مات حنطوه وزينوه بالذهب كالملك، واحتفلوا بدفنه احتفالًا مهيبًا. ولم يكن قدماء المصريين منفردين في ذلك، وإنما شاركهم فيه الآشورويون والبابليون، وهما شعبان عريقان أيضًا. ولم يقتصر قدماء المصريين على عبادة الحيوانات، إذ كانوا يعبدون أيضًا الأحجار المقدسة والأشجار المقدسة والأعمدة المقدسة.

تلك هي الفجوة التي تفصلنا عن رجال ونساء تلك الحضارات الأولى، وهي فجوة قد تتعذر قنطرتها تمامًا؛ ذلك لأن المصريين القدماء كانوا –في تفكيرهم– أقرب منا إلى الرجل البدائي برغم علو كعبهم في الحضارة. ولعل التعليل التالي يفسر لنا لماذا عبد المصريون القدماء الحيوانات (قبل أن يتمكن العلم من تفسير دورة حياة النباتات والحيوانات، وقبل أن يعرف الإنسان أن الحيوانات والزواحف والطيور أجناس)، وإن كانت أدنى منه مرتبة إلا أنه شبيهة به، لم يكن في استطاعته أن يحكم عليها إلا من حيث علاقتها بإنسانيته، ومن ثم فإن ما أثار اهتمامه هو أن هذه الحيوانات كانت جد مختلفة عنه، وأنها تملك قوى وتؤدي وظائف لا تتهيأ له. فالطائر بقدرته على الطيران، والأسد بقوته الخارقة، والتمساح الذي يتوارى في النهر، ويستطيع أن ينتزع ساق رجل بقضمة من فكيه، والثعبان بصمته المريب وحياته المتلّصصة، وأبو قردان بحكمته. كلها انتزعت احترامه وتبجيله؛ لأنها تملك قوى خارقة للعادة لا يتمتع هو بها. ومن ثم دفعه هذا الاحترام والتبجيل إلى تعظيم هذه الحيوانات، ثم إلى عبادتها.

الفصل الثاني

رخماير يعود إلى منزله

إن الغرض الذي أتوخاه من هذا الكتاب هو وصف مختلف جوانب حياة قدماء المصريين مبوبة على قدر الإمكان؛ ولهذا سأعالج في هذا الفصل موضوع الإدارة والحكم في مصر الفرعونية.

وبينما كنت أفكر في مادة هذا الفصل، وقع بصري مصادفة على صورة أحد القوارب، فخطرت لي فكرة. لقد كانت القوارب هي الوسيلة الرئيسية التي استخدمها قدماء المصريون في تنقلاتهم، ونظرًا لأن النيل لعب دورًا هامًا في حياة كل مصري قديم، فإن هذا المصري القديم كان يعتقد أن معظم تنقلاته في الحياة الثانية ستكون عن طريق الماء؛ ولهذا دفن قدماء المصريين القوارب النموذجية في قبورهم، وتفننوا في صناعتها حتى أصبحت شبيهة بالتحف الجميلة.

وكان فرعون ووزراؤه وكبار موظفيه يستعملون القوارب في تنقلاتهم على طول نهر النيل، وعلى طول ساحل سوريا عند زيارة مستعمراتهم. وكان على كبار موظفي فرعون أن يستعملوا هذه القوارب عند قيامهم برحلاتهم الدورية، للتفتيش على الأقاليم بالنيابة عن مولاهم الملك، وعند زيارة الحكومات المحلية (فومارکس) للتحقيق في المسائل المتعلقة بالضرائب

–وبالأخص لضبط حالات التهرب– ودراسة حالة الأرض وقنوات الري، والتفتيش على الحاميات، أو فض المنازعات القانونية، وكانت أعمال هؤلاء الموظفين تختلف تبعًا للمناصب التي يشغلونها.

دعنا الآن نتخيل أننا مسافرون عبر مصر في قارب أحد هؤلاء الموظفين، إننا في عصر الأسرة الثانية عشرة (١٥٨٠–١٣٢١ ق.م.) في عهد تحتس الثالث ونحن نركب قارب الوزير رخماير، وهو شخص حقيقي تعتبر مقبرته في طيبة من أجمل مقابر هذا العهد. ومع أن هذه الرحلة وهمية، إلا أنه كان من السهل جدًا القيام بها آنذاك، إذ إن التفاصيل التي سنسردها عن الرحلة مسجلة بالدقة على جدران مقبرة رخماير.

قبل أن نبدأ الرحلة، سنذكر كلمة من أعمال الوزير. إنه الموظف الأول في الدولة بعد فرعون، ويتولى تنفيذ الجانب الإداري من أعمال فرعون دون الجانب الديني (كان فرعون كبير الآلهة أيضًا)، ويعين الوزير أربعة مندوبين في كل إقليم، يقدمون له تقريرًا عن الحالة في الإقليم كل أربعة أشهر. ويتلقى الوزير تقارير مفتشي المناطق، ويشرف على حدود الأقاليم وتوزيع الأراضي، ويصدر الأوامر الخاصة بالمحاصيل الثانية والري والضرائب المتأخرة والسرقات التي تحدث في الأقاليم، وشكاوي المحافظين المحليين.

وكان الوزير يستصحب معه عددًا من كبار الموظفين؛ ولهذا كنا نشكل أسطولًا صغيرًا من القوارب أثناء هذه الرحلة النهرية من الدلتا إلى طيبة

عاصمة المملكة. كان الوزير ورجاله قد زاروا بعض مدن سوريا الساحلية التي كانت تدين لفرعون بالطاعة حينذاك بعد الغزوات الظافرة، التي قام بها تحتمس الثالث، والتي أخضعت للحكم المصري جزءًا كبيرًا من سوريا الحالية وإسرائيل ولبنان.

وأخيرًا وصل القارب إلى شاطئ مصر، فرأينا على البعد مدخل النيل الخالد، وعلى جانبيه أشجار النخيل والسنط ودلتا النيل الخضراء الفسيحة. وعلى إثر دخول قاربنا في أحد فرعي النيل الرئيسيين سكنت الريح، فبدا التذمر على وجوه المجدفين؛ لأن ذلك معناه استعمال المجاديف لتسيير القارب، وكان المجدفون يجلسون فوق (دكتين) مثبتتين على جانبي القارب ونصفهم الأعلى عاريًا.

أما الوزير فكان يجلس في القمرة التي تتوسط القارب، وهو يملي تقاريره ورسائله على الكتبة. كان يرتدي معطفًا طويلًا من الكتاب، بينما أكسب الشعر الأسود المستعار الذي كان يرتديه وجهه مهابةً وجلالًا، وكان كتبته يجلسون القرفصاء أمامه وقد وضعوا ورق البردي على ركبهم. كان الوزير وكبار الموظفين هم وحدهم الذين يرتدون الشعور المستعارة، أما البحارة فكانوا حليقي الرؤوس، يرتدون (تنورة) بيضاء بسيطة، وصدورهم عارية.

ولقد كان النبلاء يرتدون هذه (التنورة) منذ ألف وخمسمائة عام عندما بنيت الأهرامات، إلا أن النبلاء وكبار رجال الدولة ما لبثوا أن

تحولوا إلى الأردية الطويلة، ومع ذلك فإن هناك شيئًا واحدًا يشترك الجميع فيه، وذلك أنهم حليقو الذقون. وهذا هو السبب في أنه كان من السهل تمييز السفينة الأسيوية التي كانت تمر بنا في تلك اللحظة وهي محملة بالسلع، كان رجالها جميعًا ملتحين. فتطلع رجالنا إليهم باهتمام، بينما ألقى ربان قاربنا إلى ربان السفينة السورية بالتحية بلغة غريبة، فرد الآخر عليه بنفس اللغة.

كان عهد تحتمس الثالث من العهود الزاهرة في تاريخ مصر الفرعونية، فإلى جانب الفتوحات العامة التي قام بها فرعون، فإنه أنشأ علاقات سياسية وتجارية مع الدول الأخرى، مع إمبراطورية الحيطيين، وملوك بابليون، وحكام إمبراطورية (كريت البحرية الكبرى). وكان رخماير يعرف هذه الشعوب حق المعرفة؛ لأن الرسامين الذين كانوا يعدون قبره بمدينة طيبة في ذلك الوقت كانوا يرسمون صورًا تمثله وهو يتلقى الهدايا من (شعب البحر)، كما كان المصريون يطلقون على الكريتيين.

وهكذا مرت بنا سفن وقوارب كثيرة تنتمي إلى جنسيات مختلفة ونحن في طريقنا إلى طيبة. ومررنا بباطو التي كانت عاصمة الشمال في العصور القديمة قبل أن يوحد مينا البلاد، ولكنها أصبحت الآن مدينة ريفية بمعابدها ومنازلها وحدائقها، وإن بقيت ذكرى عظمتها الدراسة ممثلة في الشارة التي يرتديها الملك في تاجه، الأفعى التي ترمز إلى باطو.

أما الشارة الملكية الأخرى التي تظهر بجانب الأفعى، فهي رسم الصقر رمز نخن عاصمة مصر العليا سابقًا. ومع أن ١٥٠٠ سنة مرت منذ تربع الملك مينا على عرش مصر، إلا أن تحتمس الثالث ما زال يرتدي هاتين الشارتين تمجيدًا لذكرى توحيد المملكتين.

إننا لن نصل إلى طيبة قبل ثمانية أو تسعة أيام، ونظرًا لأن الرحلة طويلة ومملة، دأب الوزير على العمل في ساعات النهار المبكرة، وفي ساعات الليل المبكرة، بينما كان يقضي الساعات التي تتوسطها في النوم. وكنا كلما هبط الليل نلقي مراسينا عند مدينة ساحلية، ونقضي الليل في ضيافة أحد الموظفين المحليين بها.

إننا الآن في الصباح المبكر، ونحن نخلف دلتا النيل وراءنا، وقد أخذ الوادي الأخضر العريض يضيق، وها هي الصحراء الداكنة تقترب من الجانبين. ومن الآن إلى ٣٠٠ ميل قادمة لن تختفي صحراء ليبيا وصحراء العرب عن أبصارنا.

وهناك على البعد ومن ناحية اليمين توجد الأهرامات، وقد اكتست باللون الذهبي في زرقة سماء الصباح. هناك أولًا هرم أبو رواش، ثم الأهرامات الثلاثة المعروفة باسم ثلاثي الجيزة، الهرم الأكبر الذي بناه منقرع. ونظرًا لأنه الذي بناه خفرع، والأصغر الذي بناه منقرع، ونظرًا لأنه كان قد انقضى ٣٠٠٠ عام على بناء هذه الأهرامات، فقد راح الوزير رخماير يحدق فيها وقد سرح بخاطره.

وبينما كنا ننطلق جنوبًا، ظهرت لنا أهرامات أخرى عند الأفق، زاوية العربات، وأبو صوير، وسقارة، وفي سقارة كان الهرم المدرج الكبير يرتفع في الجو شامخًا متحدثًا عن عظمة إيمحوتب، المهندس المعماري في عهد زوسر الذي حكم مصر قبل خوفو، كما بنى سنفرو هرمًا يبعد عن سقارة عدة أميال إلى الجنوب.

وكان الوزير رخماير يرى هذه الأثار فيتذكر تاريخ المملكة القديمة، كان يعرف أن الألف عام الماضية شهدت مشرق عهود ومغرب عهود غيرها، وأن عاصمة مصر انتقلت عدة مرات، وأن ملوك مصر القديمة كانوا يحكمون من ممفيس، التي كان الوزير يرى قبابها ومعابدها أمامه في تلك اللحظة. وبعد حوالي ٥٠٠ سنة (أي في نهاية الأسرة السادسة) ضعفت سلطة الملوك. وأعقبت ذلك فترة من الاضطراب مدتها ١٠٠ عام انهارت خلالها السلطة المركزية، وتعرضت مصر للغزو الأجنبي.

إلى أن كانت الأسرة الحادية عشرة فحكم مصر ملوك أقوياء من هرمونيش أولًا، ثم من طيبة بعد ذلك. وبعد ٤٠٠ سنة أخرى غزا مصر (ملوك الرعاة) الأسيويون، وأخيرًا جاء الخلاص على أيدي ملوك الأسرة السابعة عشرة المحاربين، الذين طردوا الغزاة وأقاموا حكمًا قويًا. وكان تحتمس الثالث من أحفاد هؤلاء الملوك الأقوياء، فحكم مصر من طيبة التي اتخذ منها عاصمة لملكه الذي كان يمتد من السودان إلى نهر الفرات.

وبينما كان الوزير يغادر القارب عند ممفيس، أخذت الخواطر تتوارد في ذهنه.

نعم، لقد شهدت مصر تغييرات كثيرة منذ دفن هؤلاء الملوك العظماء في الأهرامات، التي تستطيع أن تراها على الجانب البعيد من النهر. إن الملوك لم يعودوا يبنون أهرامات الآن، ولكنهم ينشئون قبورهم في صخور تلال طيبة، أما النبلاء أمثاله فلم يعودوا يبنون مصاطب حجرية بجانب قبر مولاهم، فهم أيضًا يحفرون قبورهم في الصخور، ولكنهم لا يحفرونها في الوادي الملكي، وإنما في مدينة الموتى على الجانب الآخر من الجبل.

ومع ذلك كان الوزير يعلم أن أشياء كثيرة بقيت على حالها منذ العصر القديم، فهو مثلًا يعبد نفس الآلهة التي كان أسلافه يعبدونها، ويستعمل نفس الطقوس الدينية تقريبًا، فإن الرسومات التي يعدها الفنانون على قبره والتي تبينه وهو يتلقى القرابين، أو يشرف على مزارعه وضياعه، أو يرحب بزائريه في إحدى الولائم، أو ينثر السمك في النيل، تشبه تمامًا الرسوم الموجودة على جدران أسلافه الذين خدموا خوفو في مدينة ممفيس منذ خمسة عشر قرنًا.

وفوق كل هذا كان نظام القانون والحكومة الذي يديره، هو نفس النظام تقريبًا الذي كان متبعًا في تلك العهود السحيقة، فما هو هذا التقليد الحكومي؟

أولًا: سلطة مركزية قوية مطلقة، فقد كان كل ما حققته مصر خلال الممالك القديمة والوسطى والجديدة نتيجة لما كان فراعين ذلك الوقت يتمتعون به من سيطرة كاملة على البلاد. فعن طريق سلطتهم المطلقة على الأيدي العاملة استطاعوا أن ينفذوا الأعمال العامة، ويبنوا الآثار التي ما زالت تثير الرهبة في النفوس حتى الآن.

ثانيًا: كان التحكم البيروقراطي الجامد تقليدًا، إذ كانت السلطة النهائية في يد فرعون الذي يعين وزراءه وموظفيه، وهم غالبًا من رجال الأسر المالكة. ويشغل هؤلاء الموظفون مناصبهم إما بالتعيين أو بالوراثة، أما الانتخاب فكان نادرًا.

وتحت هؤلاء كانت هناك جيوش من صغار الموظفين والمفتشين وجامعي الضرائب والكتبة ومن أشبههم، ولذلك فإن من المستبعد أن تكون هناك دولة أخرى في العالم تمتعت بنظام إداري ممتاز كمصر الفرعونية. فقد كانت الظروف جميعها تحتم أن تكون سلطة فرعون مطلقة؛ وأهم أسباب ذلك هو أنه –بصرف النظر عن كنوز الذهب والغنائم، التي كانت الجيوش المصرية تستولى عليها عند غزو البلاد الأخرى– كانت ثروة مصر بدورها تعتمد على فيضان النيل السنوي؛ ولهذا كان لزامًا على الموظفين أن يتأكدوا من أن الأيدي العاملة منظمة ومستخدمة على خير وجه.

***

كانت ممفيس إقليمًا من سبعة وستين إقليمًا تتكون منها مصر في ذلك العهد، عهد المملكة الجديدة.

وقضى الوزير الليل في منزل المحافظ، وقضى اليوم التالي في مشاورات مع المحافظ حول الشؤون التي يرجع إليه فيها. وقد جلس الرجلان وموظفوهما في الردهة ذات الأعمدة، التي يطل أحد جوانبها على حديقة بها نافورات جميلة تقذف الماء إلى علو كبير، وطيور تغرد وهي تنتقل فوق أشجار السنط. وكان الموظفون المحليون يجيئون ويذهبون وهم يسجدون عند الدخول، وكان الكتبة يجلسون القرفصاء على الأرض، ويدونون قرارات الوزير في لفائف البردي.

وبدأت المحادثات بنقاش حاد حول حدود الإقليم، استدعى الرجوع إلى السجلات القديمة. ثم انتقل الحديث إلى موضوع الضرائب، فقال المحافظ إن محصول العام الماضي كان ضعيفًا، وإن الحالة تستدعي إطالة المهلة، ولكن الوزير لم يقتنع بذلك، وسأل المحافظ هل هو واثق من أن الضرائب لم تتسرب إلى جيب أحد الموظفين المحليين كما حدث في بعض المناسبات، فأجاب المحافظ بالنفي ووعد ببحث الموضوع.

واستدعي رجال الري لإبداء رأيهم في حالة الفيضان في العام المقبل، بعد أن اطلعوا على مقاييس النيل حتى يمكن تحديد الضرائب على أساس المحاصيل المتوقعة، وتدبير الأيدي العاملة اللازمة للزراعة.

ومضى الصباح على هذا النحو، وانفض الاجتماع عند الغداء، وخلت الردهة من الجميع إلا من الحراس الذين كانوا يتثاءبون كسلًا. وكان السكون شبه مستتب إلا من صوت ماء النافورات وزقزقة الطيور، وتلك الأصوات الهامسة التي كانت تنبعث من جناح الحريم. وعلى شاطئ النهر كانت المشارب والمواخير تفص بروادها، كما كان بحارة القارب يقضون وقتهم هناك حتى يعود مولاهم.

وجرت مباحثات أخرى في المساء حيث اجتمع الوزير بالموظفين، الذين يعينهم فرعون للإشراف على الحكومة المحلية، وهم أربعة مفتشين في كل إقليم، وتشمل أعمالهم دراسة قوائم إحصاء الرجال والماشية على السواء. وعندما قدم هؤلاء المفتشون تقاريرهم ناقشهم الوزير فيها ليطمئن إلى دقة الإحصاءات؛ لأنه كان يعلم أن بعض الفلاحين يهربون ماشيتهم عند إجراء التعداد.

وهكذا كان نظام الحكم مزدوجًا في مصر: مجلس ملاك ويرأسه المحافظ، والوزير ومفتشوه الذين يراقبون أحوال الإقليم. وكان على رخماير ومولاه أن يفتحا أعينهما دائمًا؛ حتى لا تزداد قوة هذه المجالس المحلية أو تعلن استقلالها.

***

واستأنفنا الرحلة، وبدأت الأهرامات القائمة على ضفة النيل الغربية تمر بنا الواحد تلو الآخر، وكان الوادي يتسع في بعض النقط، ويضيق في

البعض الآخر، ويلتوي في موضع ويستقيم في موضع آخر. وكنا نمر بالقرى المشيدة من الطين من حين لآخر. وسرعان ما اختفت الأهرامات، ولم نعد نرى غير الصحراء. وبدأ رجالنا ينشدون وهم يجدفون، وما لبث الوزير أن رفع رأسه حينما مرت بنا سفينة قادمة من أسوان، تحمل أحجارًا من الجرانيت زنتها ٦٥٠ طنًا. وما كادت السفينة تمر حتى رأينا عددًا من القوارب يستقلها بعض النبلاء الذين كانوا يصطادون الإوز، ورأيت إوزتين تسقطان في الماء فاندفعت القوارب نحوهما لانتشالهما.

وزرنا مدنًا أخرى، ففي أبيدوس نزل الوزير إلى البر ليقدم نذرًا إلى قبر أوزوريس، وبعد عدة أميال زار مدينة صغيرة، أغار عليها عرب الصحراء الغربية الرحل ونهبوها. وكان محافظها وقائد حاميتها يتبادلان الاتهام، وينسب أحدهما الإهمال إلى الآخر، فوجه رخماير اللوم للرجلين، واعتزم في قرارة نفسه التوصية بتعيين قائد آخر للحامية مع تقوية الحامية نفسها.

وأخيرًا وصلنا إلى طيبة، فتهلل وجه الوزير فرحًا بالعودة إلى وطنه وبيته بعد غيبة طويلة. كانت المدينة منقسمة في الواقع إلى مدينتين يفصلهما النيل، فعلى اليمين سلسلة من المباني الحجرية الفخمة. إنها المعابد التي تجرى بها مراسم دفن الملوك الذين بدؤوا يدفنون في وادٍ منعزل على الجانب البعيد من التلال. ففي هذه التلال توجد مدينة موتى شاسعة وشاطئ صخري، أمامهما أرض منخفضة نثرت في أرجائها قبور النبلاء وأثرياء طيبة. وبين الشاطئ الصخري والنهر توجد قرى كبيرة، بها منازل مبنية بالطوب النيء، يقيم بها من يعملون في مدينة الموتى: المحنطون، صانعو

التوابيت، وصانعو أثاث المقابر، والحجارة الذين يحفرون الصخور لإنشاء القبور، والفنانون والنحاتون الذين يزينون جدران المقابر. وعلى مقربة من المعابد يقيم الكهنة الذين يقدمون القرابين بانتظام لأرواح الموتى الذين يرقدون في هذه المدينة، مدينة الأموات.

ولكنك إذا أدرت بصرك إلى اليسار رأيت صورة مغايرة تمامًا، صورة مدينة الأحياء، المدينة الصاخبة الحافلة بالحركة والنشاط، تصل إليها وتخرج منها قوارب ذات أغراض منوعة: سفن تجارية تفرغ الحبوب والمنتجات الأخرى، وسفن نقل محملة بالكتل الحجرية لبناء المعابد والقبور، وسفن أجنبية قادمة من سوريا وجزر الأبونيان، وسفن حربية، وسفينة فرعون الذهبية وسفن نبلائه.

وتناهت إلى مسامعنا همهمات مكتومة ونحن نقترب من المرفأ، ووقف البحارة وفي أيديهم الحبال استعدادًا لإرساء القارب، وعندما تطلعنا أمامنا رأينا بالقرب من الشاطئ جدران المخازن والجمرك والمنازل والمشارب والمواخير ومنازل الفقراء، ومن ورائها بيوت النبلاء وكبار الموظفين بحدائقها الغناء، وإن كانت مبنية أيضًا من الطين والخشب، أما المبنى الوحيد الذي شيد من الأحجار فهو معبد آمون–رع ملك الآلهة.

وما كاد القارب يرسو حتى رأينا خدم الوزير وحرسه في انتظاره على رصيف الميناء، وأفسح الجميع الطريق للوزير، بينما كان أفراد الشعب الذين يمر الوزير بهم يسجدون له حتى تلامس جباههم الأرض، واستقل الوزير محفته الذهبية ومضى إلى منزله في الضواحي.

الفصل الثالث

المنازل والأثاث

أما وقد حاولت أن أقدم للقارئ صورة تقريبية عن مصر، كما كان يراها موظف كبير من الأسرة الثامنة عشرة، فإنني سأتريث قليلًا لأتحدث عن التاريخ المصري القديم؛ ولهذا سأدع رخماير الآن وشأنه، لأتحدث عن المنازل والأثاث أيام قدماء المصريين، ثم أعود لمواصلة الحديث عن الوزير رخماير في الفصل التالي.

إن المنزل المستقر، أي المسكن الدائم بأثاثه وأدواته، ضروري لنمو وتقدم علوم وفنون معينة. وقد بلغ العرب الرحل ذرى لم يبلغها قدماء المصريين في الشعر والفلسفة والرياضيات، ولكن حتى العرب أنفسهم لم يبلغوا ما بلغوه من إعجاز في الهندسة المعمارية والتصميم إلا بعد أن أنشؤوا المدن، ومع أن قدماء المصريين كانوا من أوائل الشعوب –بل لعلهم أولها– التي ابتكرت فن الكتابة وأنتجت أدبًا، إلا أنهم كانوا شعبًا استقر منذ أمد طويل وحقق أعظم انتصاراته في الهندسة المعمارية والنحت والتصوير، ونظرًا لأنهم كانوا شعبًا مستقرًا؛ فقد كانوا روادًا في إرساء قواعد فن الحكم والإدارة المدنية.

إن المناخ ووجود مواد البناء يقرران شكل مباني الناس، ففي أوربا الشمالية كان الخشب أول مادة استعملت في البناء؛ وذلك بسبب رداءة

الطقس في الشتاء ووجود الغابات بكثرة. فأنشأ الناس منازلهم منه عندما انتقلوا هابطين إلى الأرض المنخفضة، تاركين وراءهم أكواخهم البدائية المصنوعة من الحجر، في الأراضي المكشوفة عديمة الشجر. ولكنهم ما كادوا يتعلمون فن استخدام الحجر حتى بدأوا يبنون بيوتهم به أو بالطوب؛ لضمان الوقاية مدة طويلة الأمد من الريح والمطر والثلج، إلا أن هذه الأحوال لم تكن تنطبق على مصر؛ بسبب سطوع شمسها وشدة حرارة طقسها في معظم شهور السنة وبالأخص في الجنوب، ولهذا كان أهم شيء هو إيجاد المأوى الذي يقي من الشمس وهواء الليل البارد. ومع أن الأحجار كانت متوفرة في مصر، إلا أن المصريين القدماء لم يستعملوها في أغراض البناء إلا نادرًا، حتى بعد استقرارهم في وادي النيل، وإنما استعملوا المادة التي كانت ولا تزال أرخص المواد حتى اليوم، وهي الطين.

قد يبدو الطين مادة غير صالحة لبناء المساكن بالنسبة لمن يعيشون في أجواء أكثر اعتدالًا؛ وذلك لضعف احتماله وقذارته، ولكنه لم يكن بالنسبة لقدماء المصريين، فقد رأينا مصاطب قبور في سقارة وبالقرب من أهرامات الجيزة مبنية من الطوب المصنوع من الطين المجفف، وقد مضى عليها أكثر من ٥٠٠٠ سنة، وما زال الفلاحون يستعملون هذا الطوب في بناء مساكنهم حتى يومنا هذا، وإن كانوا يخلطونه بالتبن وروث البهائم لتقويته، ولم يكونوا يصنعون سقوفًا منحدرة كيلا تتراكم مياه الأمطار فوقها؛ لأن الأمطار قليلة في مصر، ولهذا كانوا يجعلون سقوف منازلهم مسطحة تبرز منها جدران غير منتظمة حتى يمكنهم الجلوس فوقها في نسيم الليل العليل. وفي القاهرة القديمة كانت الأراضي الصالحة للبناء محدودة؛ ولهذا

كان كثير من الناس يحتفظون بماشيتهم في بيوتهم، أما سبب ترك الجدران الجانبية للمنازل غير كاملة، فهو إنشاء طابق علوي إذا دعت الضرورة لذلك.

وكان المصريون القدماء يصنعون من سعف النخيل حزمًا يربطونها بالطين ويستخدمونها كأعمدة، قبل أن يتعلموا صناعة هذه الأعمدة من الخشب أو الأحجار، على غرار القائم الذي يدعم الشادوف في أيامنا هذه، وكانت حزم سعف النخل تستخدم في تسقيف المنازل بعد خلطها بالطين وتثبيتها فوق عوارض خشبية، وما زالت هذه الطريقة مستعملة حتى الآن في القرى المصرية.

وكان الفناء من خصائص جميع المنازل المصرية باستثناء منازل الفقراء، ففي بلاد كمصر تسطع شمسها دائمًا يكون الفناء هو المكان الطبيعي للحياة اليومية؛ ولذلك فإنك تشاهد في جميع المنازل النموذجية تقريبًا فناء ذا جدران أمام المنزل، أما إذا كان المنزل كبيرًا فإنك تجد على جوانب هذا الفناء غرفًا تطل عليه، وغالبًا ما تجد خزان الماء في منتصف الفناء على غرار الفيلات التي كان الرومان يسكنونها في بومباي. وقد صممت منازل قدماء المصريين بطريقة تصون حرمتها؛ ولذلك فإن جدرانها عالية جدًا ونوافذها صغيرة جدًا، وغالبًا ما تكون المطلة على الفناء بلا نوافذ تطل على الخلاء؛ اكتفاءً بنوافذها الكبيرة التي تطل على الفناء.

وعلى مر القرون طرأت تغييرات طفيفة على المنازل المصرية، فأصبحت منازل النبلاء أكبر وأكثر فخامة، فحلت الأعمدة المصنوعة من الأحجار أو الخشب محل الأعمدة التي كانت تصنع من سعف النخيل، وطليت الجدران المبنية بملاط جميل، وزخرفت بمناظر ملونة من الجص، إلا إن منازل الفقراء بقيت على حالها تقريبًا.

وفيما عدا استثناءات ضئيلة، لم يبذل المصريون القدماء جهدًا يذكر لمحاولة تخطيط المدن، فقد اتسعت مدنهم الكبرى كممفيس وطيبة خبط عشواء، كما كان الحال في لندن خلال القرون الوسطى. وحتى في مدينة إخناتون (الجديدة) بتل العمارنة، حيث كانت الشوارع الرئيسية تتخذ شكل زاوية قائمة تقريبًا، إلا أن الضواحي كانت مختنقة بما فيها من شبكة الحارات والممرات الضيقة المنتشرة في أنحائها.

أما قصور الملوك ومنازل العظماء فكانت أجمل وأفخم بالطبع من منازل عامة الشعب. وفي الأسرة الثامنة عشرة (أي في العصر الذي عاش فيه رخماير) بلغت المنازل غاية الفخامة والراحة، بحيث يتعذر إضافة مزيد من التحسين إليها حتى في عصرنا هذا.

كانت المنازل لا تزال تبنى بالطوب النيء، ولكن الجدران كانت تزخرف بمناظر أشجار ونباتات وطيور صنعت من الجص بألوان جميلة، وقد اكتشف السير فليندر بتري بعض النماذج الرائعة لهذه المناظر في تل العمارنة. ومن ناحية الحجم والتخطيط كانت المنازل تختلف تبعًا لثراء

المالك ومركزه، إلا أن بعض الخصائص الرئيسية بقيت على حالها. فأولًا كان هناك جدار خارجي من خلفه حديقة كبيرة، وبه المدخل الوحيد للمنزل، وتوجد بجوار المدخل غرفة البواب.

فإذا كان المنزل كبيرًا جدًا، تفرعت من هذه الغرفة ثلاثة ممرات، يؤدي أحدها إلى أحسن غرف المنزل بأروقتها ذات الأعمدة المخصصة لاستقبال الزائرين، وغرف أصغر للطعام والنوم. أما الممر الثاني فيفضي إلى جناح الحريم المنفصل عن أجنحة الرجال، وفيه كان يقيم حريم رب الدار. وكان الممر الثالث يؤدي إلى جناح الخدم، حيث توجد غرفة المائدة والمطابخ والمخازن. وكان عدد غرف الأسرة حوالي ١٦ غرفة، علاوة على ثلاثة أروقة أو أكثر، به رواق أو أكثر معمد، بينما كان عدد غرف المطبخ والمخازن حوالي ١٤ غرفة وبه رواق للخدم. وكانت في مؤخرة المنزل ساحة كبيرة مكشوفة بها رواق معمد ظليل ومزيد من غرف المخازن. وهكذا يتراوح مجموع الغرف بين ٥٠ و٦٠ غرفة ليس لها غير مدخل واحد ضيق. كان هذا هو طراز المنزل الذي عاش فيه كبار الموظفين أمثال رخماير.

ومن هذا يتبين أن أسرة الموظف المصري الكبرى كانت كبيرة العدد، ولم تكن هناك غرف له ولزائريه وخدمه فحسب، وإنما كانت هناك أيضًا غرف لأولاده وأولاد زوجاته غير المتزوجين. كذلك كانت هناك أماكن للعربات والجياد، ومخازن للطعام، وبدرومات للخمر. أما صوامع الغلال فكانت تبنى عادة في الحديثة، أما إذا كان المنزل صغيرًا فكانت هذه المخازن تبنى فوق السطح.

إلا أنه ينبغي ألا يغيب عن البال أن قدماء المصريين كانوا يقضون معظم أوقاتهم خارج المنزل، وأن الغرف كانت تستعمل في الليل وخلال شهور الشتاء فقط. ولهذا كان الموظف الكبير يسترخي في الساحة والحديقة؛ نظرًا لأن المصريين القدماء كانوا من عشاق الحدائق، ولعل حبهم لها كان بمثابة تحد للصحارى المجدبة التي تحيط بهم من كل جانب. وقد جلب المصريون الأشجار من آسيا لقلة أنواع الشجر ببلادهم، فكانت هناك أشجار للفاكهة وأخرى للظل، وكان المصريون يبنون أحواضًا للسمك، وكانت هذه الأحواض تحقق غايتين: الزخرفة، وإبعاد البعوض عن المنزل، ويبدو أن هذا هو السبب في عدم انتشار الملاريا بمصر القديمة.

أما أثاث المنازل فكان يختلف تبعًا لأهمية المالك، ولكنه كان قليلًا بصفة عامة إذا قورن بما في منازل أوروبا وأمريكا من أثاث. وكان الأثاث الموجود بمنازل الملوك والنبلاء غاية في الجمال والفخامة ودقة الصنع. أما القطع الرئيسية فكانت الأسرة والمقاعد والمناضد وصناديق الملابس وغيرها. وقد حفظت نماذج جميلة منها في المقابر المصرية، وبالأخص خلال الأسرتين الثامنة عشرة والتاسعة عشرة.

فلنتكلم عن المقاعد أولًا. كان عددها أقل مما يوجد في المنزل الأوروبي، وآية ذلك أن المصري القديم كان يجلس إما على الأرض أو نصف راكع أو على أريكة ذات وسائد. وهناك صور كثيرة تبين الزائرين وهم جالسون في هذا الوضع وقد ثنوا ركبهم تحتهم، ويبدو أنهم لم يكونوا يجلسون في الوضع المائل عند تناول الطعام كما فعل الإغريق والرومان.

وكذلك فإنهم لم يكونوا يجلسون حول مائدة طعام، فإن الصور المرسومة على جدران المقابر لا تحتوي إلا على مناضد صغيرة. وفي الحفلات كان كل زائر يجلس إلى منضدة خاصة عليها أدوات الطعام، بينما تولى أحد الأرقاء خدمته.

لقد انطوى تصميم بعض قطع أثاث الأسرة الثامنة عشرة على إسراف في الزخرف، ولهذا فإنني أرى أن عرش توت عنخ آمون المشهور كئيب المنظر مثقل بالزخارف، ولكني أفضل مقعد الطفل الجميع المصنوع من الخشب والمطعم بالعاج، الذي كان الملك يستعمله وهو غلام صغير.

كان عدد قطع الأثاث المستعملة في المملكة القديمة، وعثر عليها في العصر الحديث، قليلًا جدًا. ولكن صورها المنقوشة على جدران المقابر تدل على أن هذه القطع كانت مرتفعة عن الأرض في عصر بناة الأهرام. وأهم الأمثلة على ذلك قطع الأثاث التي صنعت للملكة هيتيفراس أم الملك خوفو، وهي عبارة عن سرير ومقعد وظلة ومقعد متحرك، وقد عثر عليها في نفق عميق بالقرب من الهرم الأكبر.

إن أسرة قدماء المصريين تثير الاهتمام، فقد كانت مرتفعة كثيرًا عن الأرض، وكانت حشياتها تصنع أحيانًا بانحدار خفيف من موضع الرأس إلى موضع القدمين، وكانت إطاراتها مكونة من أعمدة متينة عند الطرف. أما الحشيات فكانت تصنع من الحبال المشدودة، وإن تهيأ لها قدر من المرونة، ويحتمل أنها كانت تغطى بوسائد، وقد قال من ناموا فوقها إنها مريحة، بل

لقد ادعى بتري أن الوسائد الخشبية كانت مريحة، ولكني أرتاب في ذلك، كما أن صناعة هذه الوسائد من الخشب مما يحير العقول. وما زال هذا الطراز من الوسائد شائعًا حتى الآن في أجزاء معينة من أفريقيا، وقد صممت بحيث تلامس العنق من أسفل بالقرب من الأذنين، ولعل السبب في ذلك هو إبقاء (الباروكات) الثقيلة التي كان قدماء المصريين يرتدونها بعيدة عن الفراش.

وإن كان من المتعذر معرفة سبب عدم خلع قدماء المصريين شعورهم المستعارة أثناء الليل. وقد ادعى بتري أيضًا أن قدماء المصريين كانوا ينامون في وضع مستقيم، ولكني لا أكاد أصدق ذلك ولا أجد له مبررًا.

أما الطلاء فقد برع المصريون فيه إلى درجة مذهلة. ومن بين قطع الأثاث الهامة في منازل قدماء المصريين الصناديق، صناديق الملابس والبيانات والأسلحة وغيرها، وكانت هذه الصناديق جميلة الصنع مطعمة بالعاج وغيره، وأجمل نماذج هذه الصناديق هو ما عثر عليه في مقبرة توت عنخ آمون. وكان قدماء المصريين يضيئون منازلهم بمصابيح زيتية، وكانوا يصنعون بعض هذه المصابيح من المرمر الرفيع الشفاف، المزخرف من الداخل بالرسومات الملونة التي تظهر من الخارج عند إشعال المصباح، وفي منازل الملوك والأثرياء كان الذهب والفضة يستعملان في زخرفة الأثاث.

لكن ماذا بشأن طعام قدماء المصريين؟ يبدو أن ألوان الطعام التي كانت الطبقات الثرية تتناولها كانت منوعة. ففي الرسومات التي وجدت

على جدران المقابر صور تمثل مآدب، ومن ألوان الطعام الظاهرة على الموائد الدجاج والإوز واللحم البقري. وقد ورد في صلوات المصريين القدماء على أرواح موتاهم ذكر الخبز والجعة واللحم البقري والإوز، كما ذكرت عشرة أنواع من اللحوم وخمسة أنواع من الطيور وأحد عشر صنفًا مختلفًا من الفاكهة، أما الأطباق المفضلة فكانت تختلف من عصر إلى آخر. وكان قدماء المصريين يصنعون الجعة من الشعير والنبيذ، ويشربونهما بكثرة، كما تدل على ذلك الأواني الخاصة بالشراب التي عثر عليها في مقابرهم.

والآن، وقد ألممنا بقدر لا بأس به من المعلومات عن منازل قدماء المصريين وأثاثهم وعاداتهم، فلنمضِ لمقابلة القوم أنفسهم.

الفصل الرابع

الوزير يقيم حفلًا

بعد أن استراح رخماير من عناء رحلته الطويلة، وبعد أن قدم تقريره لفرعون، قرر أن يحتفل بعودته إلى الوطن، فأقام حفلًا دعا إليه صفوة رجال الدولة وزوجاتهم وأولادهم.

فلنفرض أننا كنا من سكان طيبة في ذلك العهد، وأننا دعينا لحضور هذا الحفل. ففي الموعد المحدد، وبعد أن غابت الشمس وراء الأفق بساعتين تقريبًا، أحضر الخدم المركبة ومعها اثنان أو ثلاثة من حملة المشاعل العدائين.

وما كدنا نستقل المركبة حتى انطلقت بنا في شوارع مكتظة بالناس، وكنا نضطر للتوقف أحيانًا على جانب أحد الشوارع الضيقة ريثما يمر قطيع من الماشية، وعند أحد مفارق الطرق وقفنا خمس دقائق؛ لأن فصيلة من الجند كانت تعترض طريقنا، وكانت مكونة من جنود يحملون رماحًا ودروعًا وصدورهم عارية، بينما تقدمهم ضباطهم.

وأخيرًا وصلنا إلى قصر الوزير. وعندما هبطنا من المركبة استقبلنا كبير الخدم، وكان يرتدي أفخر ثيابه. ثم سرنا في الممر الرئيسي ومعنا كثيرون من المدعوين رجالًا ونساء، وحولنا الأرقام حتى بلغنا رواق الاستقبال الرئيسي.

ها نحن أولاء في الرواق المعمد، إنه مطلي باللون الأحمر الغامق، وبه قصبات على هيئة براعم اللوتس. وكان الضوء الهادئ المنبعث من المصابيح المرمرية يسقط على الرسومات الملونة التي تزين الجدران، وهي رسومات أشجار وطيور ترفرف بأجنحتها بين أغصان هذه الأشجار.

وكان صدى حديث المدعوين الخافت يتردد بين جوانب الرواق، فشققنا طريقنا إلى الداخل بين نساء عاريات الأكتاف، ورجال يرتدون شعورًا مستعارة. واستقبلنا الوزير مرحبًا.

كان رخماير رجلًا مهيب الطلعة، يرتدي ثوبًا مصنوعًا من الكتان الرفيع المقوى، مزركشًا بكثير من الحلي الثمينة. وعندما بسط الوزير يده لنا مصافحًا، لمعت الأساور الذهبية التي تزين ذراعه. وكانت زوجته المفضلة مريت تقف إلى جانبه، إذ إنها كانت تشترك معه في كثير من أعماله، شأنها في ذلك شأن زوجات كبار الموظفين المصريين. وهي أيضًا من أسرة عريقة، ولو سئلت تايي زوجة السكرتير الأول الجافة، التي كانت موجودة وقتذاك، عن رأيها في هذا الزواج، لقالت أن رخماير أحسن صنعًا؛ لأن ثروة مريت أكبر كثيرًا من ثروته. لقد كانت النساء تتمتع بمركز ممتاز في ذلك العهد؛ لأن الوراثة كانت دائمًا في خط الإناث، فحتى فرعون نفسه لم يكن ليصبح ملكًا إلا إذا تزوج من الوريثة الملكية.

كانت مريت سيدة جميلة في حوالي الخامسة والثلاثين من العمر، أي أن عمرها كان أقل من عمر زوجها بعشرين عامًا، ومع أنها لم تكن رشيقة

كابنتيها، إلا أن قوامها كان لا يزال بديعًا. بينما كان الثوب شبه الشفاف الذي ارتدته يكشف عن أجزاء جسمها، وكانت ترتدي بدورها شعرًا مستعارًا به مئات من الضفائر التي تدلت إلى قرب كتفيها العاريتين، وكانت تتحلى أيضًا بأساور ذهبية حول ذراعيها المستديرتين، أما أظفار يديها وقدميها فطليت (بالحناء)، وكان (الكحل) الذي وضعته في عينيها يكسب هاتين العينين جمالًا وسحرًا.

وعلى مقربة منها وقفت ابنتاها الجميلتان، وكانتا ترتديان ثوبين كثوبي أمها. أما كبراهما وهي نوفرت، فكانت طويلة القامة رشيقة، تبدو عليها علامات الغطرسة، وكانت أختها الصغرى تا–كا–ان أقل جمالًا منها، وإن كانت أكثر لطفًا وذكاء، كانت في السابعة عشرة من عمرها، أقصر قليلًا من أختها، مرحة. وكان مرحها في تلك الليلة بالذات راجعًا إلى أن هذا الحفل غير الرسمي سيتيح لها فرصة نادرة لمقابلة كثير من الشبان، وبالأخص سنوحي ابن السكرتير الأول، الذي كانت تميل إليه كثيرًا.

وكانت تايي أم سنوحي، تعتقد أن تا–كا–ان خليعة، وكان سنوحي يعتقد ذلك أيضًا ولكن بطريقة أخرى.

ها هي تايي تقترب الآن، إنها امرأة رفيعة، مزمومة الشفتين نفاذة النظرات، وقد حيتها مرتين تحية جافة، ولكنها مهذبة؛ لأنها لم تكن تشعر بأي ود من نحوها. وتقدمت إلى مقعدها، أما مريت فبعد أن قالت لزوجها

بصوت هامس: "من أين بحق الأرض حصلت على هذا القرط؟"، واستأنفت الترحيب ببقية المدعوين.

وكان يقف بجانب الوزير ابنه الأصغر كينامون، وهو شاب جميل في الثامنة عشرة من العمر. أما ابناه الكبيران وهما منخفر–سنوب وأمنحتب فكانا متزوجين، وكانا بين المدعوين أيضًا.

كان كينامون ضابطًا في فرقة الجنود المنتخبين الذين يشكلون حرس القصر الملكي، وقد حصل على هذا المنصب بسبب نفوذ أبيه، ولكنه كان شابًا قلقًا طموحًا؛ ولهذا تملكه الضجر من حياة الخمول، فتاقت نفسه للعمل. فراح يبحث بين الحاضرين عن الرجل الوحيد الذي يتمنى مقابلته، وسمع من أبيه أنه سيحضر. إنه الجنرال أمنمحاب الذي أبدى بطولة فذة في عدة حملات أجنبية. وكان كينامون يرجو أن يحظى بعطف الجنرال أمنمحاب فيعمل على إقناع أبيه –وأمه على الأخص– بنقله إلى الخدمة الأجنبية.

ولم يطل انتظار الشاب فقد أقبل القائد، وكان رجلًا في الخامسة والأربعين من العمر، قوي البنية، أسمر الوجه، معتدل القوام، وابتسم القائد للمضيف. بينما راح كينامون يتطلع إلى أبيه بنظرة ملؤها اللهفة والأمل.

وأقبل مدعوون آخرون من كبار القوم، فكانوا يحيون الداعي وزوجته، ويمضون إلى الغرفة التي أعدت المأدبة فيها. وكان من بين القادمين: عمدة طيبة وزوجته وابنه، وحامل مروحة الملك –وهو منصب كبير يعادل منصب

كبير الأمناء في الوقت الحاضر– وزوجته، وكبير كهنة آمون وزوجته وابنته، والمشرف على حدائق الملك وزوجته البدينة اللطيفة، ومعلم الملك، وكبير الكتبة وابنه الضابط بالمركبات الملكية، واسمه سنحوت، وهو شاب خجول قيل إنه يحب نوفرت.

وهكذا بدأ المدعوون ينتقلون من قاعة الاستقبال إلى رواق معد، صفت به مقاعد ذهبية ومطعمة، نظمت تبعًا لترتيب مناصب كبار المدعوين. أما الباقون فجلسوا على الحصر المصنوعة من القش، وفوقها وسائد حول الجدران الأربعة.

وكانت النساء ينظمن أثوابهن الضيقة ويرتبن شعورهن المستعارة برشاقة، بينما راحت فتيات الرفيق تعلقن عقودًا من الزهور حول أعناق المدعوين، وتقدمن لكل منهم كتلة من شحم معطر. كان الزائر أو الزائرة يضعها في الشعر المستعار، فلا يلبث الشحم أن يذوب تدريجيًا أثناء الحفل فيطلي الوجه والعنق وتنبعث منه رائحة زكية، وبدأت المأدبة.

كان حول الغرفة عدد كبير من المناضد الصغيرة وضع عليها الطعام: لحم بقري ودجاج، وبط وحمام، وخضراوات، ومجموعة كبيرة من الخبز في أشكال مختلفة.

وعلى مقربة وضعت أباريق النبيذ فوق حوامل معدنية، وقد كتب على كل إبريق سنة (التخمير). ولا عجب، فقد اشتهر رخماير بنبيذه المعتق. وبدأت الأكواب المعدنية تملأ وتشرب، ثم يعاد ملؤها، والجميع

يتجاذبون أطراف الحديث الودي، وفي تلك الأثناء راح الأرقاء الذكور يقدمون المشهيات للمدعوين والمدعوات. وبدأ المدعوون ينقسمون إلى جماعات، فراح رخماير يتحدث إلى الجنرال أمنمحاب عن رحلته الأخيرة، وأصغى الشاب كينامون إلى حديثهما باهتمام.

قال الوزير: إنه تحدث إلى ميراير في أسيوط، وعلم منه أن الليبيين قاموا بغارتهم الثالثة خلال عام واحد، وأن هجومهم حدث وجنود الحامية نيام، فقتل خمسون جنديًا وهم في فراشهم، قبل أن يتمكن الباقون من الوصول إلى أسلحتهم. ولكن المهاجمين استطاعوا الفرار ومعهم نصف النساء ومعظم المؤن.

وقطب أمنمحاب حاجبيه، وتأمل خاتمه، ثم قال: إن ميراير بعث إليه بتقرير شامل عن الحادث، وإنه قرر نقل قائد الحامية لإهماله، ولولا وجود بديله في النوبة لنقل القائد عقب الحادث مباشرة.

وعلى مقربة من الرجلين كانت مريت تتحدث إلى زوجة معلم الملك، التي أخذت تعبث بعقد الداعية وتبدي إعجابها به، فقالت مريت: إنه من سوريا، أحضره زوجي من الجبل مع هذه الأساور ومجموعة من الأقمشة البديعة. فتنهدت زوجة المعلم وقالت: لكم أود لو كان في استطاعة زوجي أن يسافر!

وبينما كانت السيدتان تتبادلان الحديث عن سوريا، كان كينامون قد سئم الاستماع إلى حديث أبيه مع القائد، فانصرف عنهما سنحوت

الضابط في المركبات الملكية، الذي خدم في حملة فرعون على سوريا، وكان سنحوت يراقب نوفرت بلهفة، ولهذا راح يجيب على أسئلة كينامون باقتضاب، ولكنه لم يلبث أن انفجر ضاحكًا حينما سأله كينامون عما إذا كانت جبال سوريا أعلى من تلال طيبة، وقال: أوه! إذا وضعت عشرين تلًا من تلال طيبة فوق بعضها، فإن ارتفاعها لن يوازي ارتفاع جبل من جبال سوريا. إنها جبال باردة بحق هوراس؛ ولهذا يرتدي السوريون ثيابًا ثقيلة، ولعل هذا البرد هو السبب في إطلاقهم لحاهم لتدفئة وجوههم!

وضحك كينامون بدوره، ولكنه كان يبدو مريرًا؛ لأنه –كمعظم المصريين– لم يرَ جبلًا، ولم يعرف طقسًا غير طقس وادي النيل الدافئ. وتنهد كينسامون بعد لحظات، وقال: لكم أود الذهاب إلى سوريا! ثم تطلع بلهفة إلى سنحوت الذي أخرج لفافة رفيعة من البردي من جيب ثوبه، وقال: ما هذا؟ فأجابه زميله: سأحدثك عن ذلك فيما بعد، أوه! حسنًا، ها قد جاءت الراقصات. ترى هل موتارديس ما زالت في المنزل؟ فأجابه زميله: نعم، فما زال أبي هائمًا بها، ولكني أعتقد أنها بدأت تترهل.

وهنا تدخلت جماعة من المغنين والعازفين، وكانوا جميعًا يرتدون (التنورة) البيضاء المألوفة، وقد زينوا صدورهم وأذرعتهم، وكان بعضهم يحمل الآلات الموسيقية: أعوادًا، وقيثارات، ومزامير، وطبولًا صغيرة مستديرة. وجلس العازفون على الأرض، وبدأ عازفو المزمار ينفخون في مزاميرهم، وبعد لحظات انضم إليهم عازفو العود والقيثار، وأخذ الطبالون ينقرون على طبولهم بضربات رتيبة.

وأنشد المغنون أغنية لطيفة تكريمًا للإله آمون–رع، وليس من شك في أن رخماير كان يتوقع مجيء كبير كهنة آمون–رع، فأعد له هذه اللفتة اللطيفة سلفًا.

وعلى إثر انتهاء الأنشودة، انسحب المغنون والعازفون؛ ليفسحوا المجال أمام جماعة أخرى من العازفات الجميلات، اللائي كن يرتدين سراويل قصيرة مزخرفة بالخرز. وكانت الجماعة مكونة من عازفتين وشاب وفتاة صغيرة. وبدأ الغناء والرقص، فتقدم الشاب والفتاة الصغيرة، وركع أمامها وبسط ذراعيه إليها، فتظاهرت الفتاة أنها ستهرب منه، وهنا أدار الشاب لها ظهره، ودفن وجهه بين راحتيه، فأقبلت الفتاة نحوه وهي تسير على أطراف أصابعها. فتحول ونهض، وأنشأ يغني.

كانت أغنية جميلة، فساد الصمت الحاضرين، وراحوا يصفقون إلى المنشد وكؤوسهم في أيديهم، بينما انتهز بعض الشباب من الجنسين الفرصة، فأخذوا يتعانقون في أركان السرادق البعيدة.

أما سنوحي، ابن السكرتير الأول، فكان يجلس بجوار أبويه، ومد بصره عبر الرواق إلى الجماعة التي كانت تحيط بالوزير، فرأى عينين سوداوين تتطلعان إليه بلهفة، كانتا عيني تا–كا–ات، وعندما التقت نظرته بنظرتها حولت الفتاة عينيها عنه، وأخذت تعبث بزهرة لوتس كانت تمسك بها بين أناملها الجميلة، ولكن سنوحي لم يحول عينيه عن الفتاة.

وانتهى المغني من أغنيته، فصفق الحاضرون طويلًا، ولما هدأ التصفيق تقدمت زميلته المغنية وشرعت تغني للفتى أغنية رائعة.

وبينما كانت الفتاة تردد أغنيتها، كان السكر قد بلغ من فوزم زوجة المشرف على حدائق الملك مبلغًا عظيمًا، جعلها تفقد وعيها وتسقط من على مقعدها، وهنا ضج الحاضرون بالضحك.

وحينما سقطت فوزم أسقطت معها وعاء الفحم النحاسي، الذي وضع في نهاية الرواق لإشاعة الدفء بسبب برودة الطقس، فتبعثر الفحم المشتعل في كل مكان.

وعندئذ اندفع الأرقاء وبعض المدعوين لجمع قطع الفحم المشتعلة، فانتهز سنوحي الفرصة وغافل أبويه. واندفع نحو العامود الذي كان الوزير وزوجته وابنته تا–كا–ات يجلسون بجواره. وكانت الفتاة قد اندفعت بدورها، وفي ذروة الهرج أخذ سنوحي الفتاة بين ذراعيه وقبلها، وحدث ذلك في ثوانٍ. ودفعت تا–كا–ات الشاب عنها بشيء من العنف، وعادت إلى أبويها، بينما عاد الشاب ببطء إلى مقعده في الطرف الآخر من الرواق، دون أن يدري أحد بما حدث.

ولكن ما حدث لم يغب عن عيني نوفرت أخت تا–كان–ات الكبرى، التي كانت تجلس على مسافة غير بعيدة من أبويها، تحيط بها جماعة من فتيات صغيرات ينتمين إلى أعرق الأسر. وكانت نوفرت قد قضت المساء كله وهي تتحدث إلى زميلاتها عن الثياب والبلاط والرجال.

ولم تكن نوفرت تهتم كرفيقاتها بالرجال باعتبارهم رجالًا، وإنما كانت تهتم بهم بحسب المناصب التي يشغلونها؛ لأنها كانت ابنة وزير من أسرة عريقة جدًا، وكاهنة الإله آمون؛ ولهذا فإنها كانت الأنثى الوحيدة التي تمشي أمام فرعون كلما ذهب إلى معبد ملك الإلهة ليقدم القرابين.

وكانت نوفرت محط أنظار كبار موظفي الملك، ومن ثم فإنها قررت ألا تتزوج إلا رجلًا عظيمًا؛ لتنجب منه أطفالًا يصبحون بدورهم رجالًا عظماء. ولهذا تحيرت نوفرت حينما رأت فعلة أختها تا–كا–ات، إذ من يكون سنوحي هذا؟ إنه شاب جميل، من أسرة لا بأس بها، ولكنه معدوم المواهب، كما إنه لا شأن له مطلقًا بشؤون الدولة. لقد كان في استطاعة أختها أن تفوز بشاب متألق، أما سنوحي؟!

وفي تلك اللحظة دخلت الراقصة موتارديس يحيط بها عدد من الفتيات الجميلات، العاريات إلا من غلالات رقيقة لففنها حول أعناقهن، كما وضعن أوراق شجر حول أثدائهن وفوقها لإخفائها عن العيون. وصفق المدعوون، ومالوا إلى الأمام في مقاعدهم عندما تقدمت موتارديس إلى منتصف الرواق.

كانت في حوالي الثلاثين من عمرها، وكانت بشرتها أكثر سمرة من بشرة معظم رفيقاتها؛ لأنها كانت من دم نوبي. وكان شعرها المستعار الطويل يتدلى فوق كتفيها فيزيد وجهها جمالًا. وبدأت موتارديس ترقص على

نغمات الموسيقى، فتتهادى وتتثني كالأفعى، ثم سقطت على ركبتيها وأخذت تهز جسدها كله، وهنا بدأت زميلاتها الغناء.

وكان رخماير يراقب الراقصة وهو يكاد يلتهمها بعينيه، فقالت تايي لزوجها: إن الإنسان لا يكاد يصدق أن موتارديس أنجبت أربعة أطفال من رخماير. وانتهت الرقصة، وأخذت موتارديس تتراجع إلى الوراء وقد غضت من بصرها، وضج الرواق بالتصفيق، وبدأ الجميع يتهيؤون للانصراف.

وكان سنحوت قد ثمل من فرط ما احتسى من خمر، ولكنه مال إلى الأمام وأعطى صديقه كينامون لفافة ورق البردي التي كان يحملها في يده طوال السهرة، وقال له بصوت هامس: أرجو أن تعطيها لنوفرت بعد انصرافي.

وضع كينامون اللفافة في جيبه دون أن ينبس ببنت شفة، وعندما خلا الرواق من المدعووين، فضت نوفرت لفافة ورق البردي التي أعطاها لها أخوها، فإذا بها رسالة غرامية ملتهبة، تحمل أشواق سنحوت وتعبر عن عذابه لبعدها. وحينما فرغت نوفرت من قراءة الرسالة، قطبت حاجبيها وتقدمت ببطء من المدفأة المشتعلة وألقت بالرسالة فيها، وظلت تراقبها حتى تحولت إلى رماد. واستدارت نوفرت على عقبيها، ومضت ومعها خادماتها إلى جناح الحريم.

الفصل الخامس

المرأة المصرية

إذا استثنينا أسماء رخماير وأفراد أسرته، (وهي الأسماء التي عرفناها من قبر رخماير نفسه)، كذا اسم أمنمحاب، فإن جميع الأسماء التي ورد ذكرها في الفصول السابقة من نسج الخيال، ولكن ذلك لا يعني أن التصوير خيالي بحت؛ لأن الرسومات المنقوشة على قبور قدماء المصريين تدعم التصوير الذي قدمته للمأدبة التي وصفتها في الفصل السابق، إذ إن على جدران مقبرة رخماير رسومًا للموسيقيين والراقصات والمدعوين، وهم يحملون زهور اللوتس ويراقبون الراقصات، ورسوم الأرقاء وهم يقدمون الطعام والشراب للمدعوين.

ومما يثبت أن الأبناء والبنات كانوا يحضرون مثل هذه المآدب أحيانًا، رسم موجود في مقبرة بتل العمارنة، لابنتي إخناتون الصغيرتين ونفرتيتي، وهن يجلسن بجوار مقعد أبويهما. وهناك في مقبرة أخرى بطيبة رسم يصور فوزم، وقد جعلها الإفراط في الشراب تفرغ ما في جوفها في وعاء يحمله رقيق.

أما أغاني الحب، فورد بعضها في أوراق البردي التي يرجع تاريخها إلى عهود سابقة على العصر الذي نتحدث عنه أو لاحقة له، ومن ثم فليس

هناك ما يدعونا إلى افتراض أن هذه الأغنيات لم تكن تردد في عصر رخماير.

رب معترض من المبتدئين في دراسة مصر القديمة يقول إنه يبدو أن النساء كن يستمتعن في منزل رخماير بمكانة أعلى مما هو متوقع في بلد شرقي، ولكني أقول لهذا المعترض أنه مخطئ؛ لأن من أهم النواحي وأكثرها إنسانية في الحياة المصرية القديمة، تلك الناحية التي تجعل قدماء المصريين قريبين جدًا منا، وأعني بها حبهم الشديد لحياة الأسرة.

فقد كانت المرأة تتمتع بتكريم واحترام الطبقات المثقفة، وهناك وثائق كثيرة تدل على ذلك، منها النصيحة التالية التي كتبها الحكيم بتاح- حوتب: "إذا كنت رجلًا عظيمًا، فكون لنفسك أسرة، وأحب زوجتك في المنزل".

"واملأ معدتها، وهيئ لها الكساء والعلاج إذا مرضت. وأدخل السرور على قلبها ما بقيت على قيد الحياة".

بيد أنه كان في استطاعة المصري القديم أن يتخذ له أكثر من زوجة، وكان في استطاعة الثراة أن يحتفظوا بأي عدد يشاؤون من المحظيات. فقد وردت في مخطوطات العصر الفرعوني أشارت إلى (المغنيات الجميلات) وغيرهن من الخادمات الموجودات في (منزل الحريم)، ولكن الزوجة الرئيسية كانت تتمتع دائمًا بالأسبقية؛ ولهذا فإن الرسومات الموجودة على جدران القبور تصورها مع زوجها في الحفلات، ورحلات الصيد، والإشراف على

الضياع واستلام الخراج. وكانوا يطلقون عليها (زوجته المحبوبة) أو (حبيبته). وليس من شك في أن كثيرًا من الأسماء التي كانت تطلق على النساء تدل على فرط إعزاز الرجال لهن، كقولهم (المفضلة الأولى) و(محبوبتي) و(زوجتي الشبيهة بالذهب) و(هذه ملكتي).

وثمة حقيقة أخرى هامة، وتلك أنه بينما يفضل الذكور على الإناث في بعض البلاد الشرقية –كما هو الحال في بعض الدول العربية الآن– فإن الأسماء التي كانت تطلق على البنات في مصر القديمة تدل على أنهن كن يعاملن كالذكور سواء بسواء.

وبعض هذه الأسماء الأسماء رقيق للغاية، مثل (حاكمة أبيها) و(جميلة كأبيها). ولعل أكثرها رقة هو اللقب الذي أطلقه أب على ابنته بعد موت أمها، وهو (خليفتها).

وتوجد بليون بهولندا رسالة على ورق البردي، كتبها أرمل إلى زوجته المتوفاة، وأفرغ فيها حبه بطريقة تمس شغاف القلوب، برغم انقضاء ٣٠٠٠ سنة على كتابتها، فبعد أن ماتت زوجته سقط الزوج الثاكل فريسة للمرض.

ويبدو أن كاهنًا أو ساحرًا قال له إن السبب في نكبته هو إهماله الزوجة الميتة، فهي غاضبة من زوجها، وإن عليه أن يكتب لها رسالة لاسترضاء روحها الحزينة). ويبدو أن الزوج كان رجلًا طيب القلب،

فاستجاب لهذه النصيحة القاسية، وكتب رسالة طافحة بالألم والحب، قال فيها:

"أي أذى أحلقته بك حتى أجد نفسي في هذه الحالة التعسة؟ ماذا فعلت لكِ إذن حتى تغادريني على هذا النحو بغير أن ألحق بكِ ضرًا؟ لقد تزوجتك وأنا صغير، وبقيت معك، وعينت في جميع أنواع الوظائف، وبقيت معك. وأنا لم أتخلَ عنكِ أو أسبب لكِ أي حزن. هل تذكرين يوم أن عينت قائدًا لمشاة فرعون وفرقة مركباته، وأحضرتكِ ليسجد الجميع لك، فقدموا لك مختلف أنواع الهدايا. وعندما دهمك المرض، ذهبت إلى كبير الأطباء فأعد لكِ الدواء، وفعل كل ما أشرت به؟ وحينما اضطررت لمرافقة فرعون في رحلته إلى الجنوب، كانت أفكاري كلها معك، وقضيت تلك الشهور الثمانية وأنا لا أفكر في طعام أو شراب، ولما عدت إلى ممفيس استأذنت فرعون وهرعت إليكِ، وحزنت عليكِ حزنًا مع جميع أفراد أسرتي؟".

إن هذه الرسالة تدل على أن الزوجة ماتت عندما كان يخدم فرعون خارج البلاد.

ومن الناحية الأخرى، يجب أن نبتعد عن الإسراف في تصوير الناحية العاطفية في علاقات الأسرة عند قدماء المصريين، فمن الجائز أن كاتب هذه الرسالة كان رجلًا مخلصًا، إلا أنه من المحقق أنه ما كان ليقتصر على

زوجة واحدة لو استطاع أن يتزوج غيرها، إذ إن ملوك الفراعنة ونبلاءهم كانوا يحتفظون بحريم كير، مثلما يفعل بعض أمراء الشرق الآن.

وكما سبق أن أشرنا، فإن هناك رسومًا تفصيلية على معبد (آي) لحريم صاحب المنزل، وتصور هذه الرسوم خصيًا تبدو عليهم علامات الملل، يقفون أمام غرف النساء، بينما ظهرت هؤلاء النساء بداخل الغرف يتزين ويتجملن، أو يتدربن على الرقص والغناء للترفيه عن مولاهن.

ومن المحتمل أن معظم هؤلاء النساء كن من الرقيق؛ ولهذا لم يشعرن بأي تحقير من مراكزهن، بل الواقع إن أية امرأة منهن كانت تشعر بتكريم عظيم إذا (حظيت بعطف مولاها).

وكان الأولاد والبنات الذين تنجبهن هؤلاء النساء يربون في الحريم، إلا أنه كان من المحتمل أن أولاد الزوجة الرئيسية هم أصحاب الحظوة والأسبقية، كذلك لم يكن للأرقاء والمحظيات أي مركز قانوني، كما كان يمكن طردهن في أية لحظة.

يرجع المركز السامي الذي كانت النساء (المحترمات) تحتله في مصر القديمة إلى مبدأ سيادة الأم الذي قامت عليه الأسرة، فجميع الأراضي كانت تورث لحظ النساء من الأم إلى الابنة، فإذا تزوج الرجل بوريثة فإنه يتمتع بدخل أملاكها طالما بقيت زوجته على قيد الحياة، أما إذا ماتت فإن ملكية الأرض تؤول إلى ابنتها وزوج ابنتها.

وكان هذا النظام متبعًا بدقة في الأسرة المالكة، مما يوضح لنا لماذا تزوج كثير من الفراعنة أخواتهم بل وبناتهم، وفي حالات كثيرة كان الطابع الرسمي هو الطابع الغالب على هذه الزيجات، ولهذا كان فرعون يتزوج ابنته الطفلة في بعض الأحايين.

وفي كتاب (مصر العظيمة) كتبت مرجريتموراي: "إن فرعون كان يعمل على تأمين مركزه بالزواج من الفتاة التي ستؤول إليها ثروة زوجته بعد موتها، ليضمن بذلك الاحتفاظ بعرشه؛ ذلك لأن العرش كان يؤول إلى حظ الإناث".

إن عادة امتلاك النساء للثروة تفسر لنا كثرة زيجات كليوباترا، فقد تزوجت أولًا من أخيها الأكبر، فتوطد بذلك حقه في العرش، فلما مات تزوجت كليوباترا من أخيها الأصغر الذي حكم بحق هذا الزواج، ولكن هاتين الزيجتين لم تثمرا أولادًا.

وعندما غزا قيصر مصر، كان عليه أن يتزوج كليوباترا؛ ليجعل جلوسه على العرش قانونيًا في أعين الشعب، وبعده جاء مارك أنتوني الذي ارتقى العرش نتيجة لزواجه من كليوباترا.

وقد أنجبت كليوباترا ابنًا من قيصر وابنة من أنتوني، فلما سقط أنتوني وجاء أوكتافيوس، كان هو أيضًا مستعدًا لزواج هذه الملكة المزواجة، ولكن كليوباترا كانت حصيفة، فآثرت الموت انتحارًا.

لم تكن صلة الرحم عائقًا للزواج في مصر القديمة، فكثيرًا ما تزوجت الملكات إخوتهن، كما تزوج الملوك بناتهن في بعض الأحايين، مثلما فعل سنفرو ورمسيس الثاني وأمينوفيس الرابع (إخناتون).

وقد فعل هؤلاء الفراعنة ذلك للمحافظة على نقاء الدم الملكي وللاحتفاظ بالإرث بداخل الأسرة الحاكة، إلا أنه من المحتمل أن هذا النظام كان أقل شيوعًا بين عامة الشعب.

لقد أدى نظام توريث الثروة للنساء إلى منح المرأة المصرية سلطة عظيمة، ولذلك كتب بتري يقول إنه من الممكن تتبع الأسلاف عن طري الإناث بسهولة، أكثر من تتبعهم عن طريق الذكور. فقد كان الأب (شاغل المنصب) فقط، أما الأم فكانت رباط الأسرة. وكان الأمر كذلك بالنسبة للأملاك، فأيلولتها إلى الأم كانت بحكم العادة.

إن عقود الزواج التي عثرنا عليها تدل على أن حقوق النساء كانت محترمة تمامًا، ففي عقد يرجع تاريخه إلى عام ٥٨٠ بعد الميلاد –وإن كان الأرجح أن نصوصه استقيت من العقود السابقة– تعهد الزوج بأنه إذا ترك زوجته –سواء للكراهية أو لأنه فضل امرأة أخرى عليها– فإن عليه أن يعيد إليها بائنتها، مع منح حصة من جميع أملاك الأب والأم للأطفال الذين حملتهم.

وفي عقد آخر لاحق لهذا، وجدت السطور التالية: "إنني أعترف بكِ زوجة، فإذا أهملتك أو اتخذت لي زوجة أخرى غيركِ، فإني أتعهد بأن

أمنحك (وهنا ذكر مبلغًا من المال)". وينص نفس العقد على أن نصف أملاك والد الزوج الذي وهبته له أمه و(جميع ما آل إليه منها) يصبح ملكًا للزوجة، مع ما يستتبع ذلك من حقوق.

وكان الطلاق سهلًا في حالة فشل الزواج. وفي مثل هذه المناسبات، كان الزوج يعلن على رؤوس الأشهاد أنه تخلى عن زوجته، ويتعهد في الوقت نفسه بالإنفاق عليها، وكذلك كانت الزوجة التي تريد الطلاق تدفع لزوجها تعويضًا كبيرًا.

وليست هناك أدلة على أنه كانت هناك أية مراسم دينية للزواج، أي إنه كان عقدًا مدنيًا بحتًا، ولكنه ينص على فرض غرامة باهظة على من يفسخه.

وكما هو الحال في معظم الدول، وفي معظم الأوقات كانت الأعمال الرئيسية التي تؤديها المرأة في مصر القديمة هي حمل الأطفال وتدبير المنزل، أما الوظائف الأخرى القليلة التي كانت مفتوحة أمامهن، فهي أعمال الكاهنات والقابلات والراقصات والنادبات، وكان على الفتيات الراغبات في أن يصبحن كاهنات أن يتعلمن الأناشيد والرقصات المقدسة، ولكن هذا العمل لم يكن عملًا دينيًا بالمعنى الدقيق؛ ولذلك لم تكن هؤلاء الفتيات مرغمات على التبتل.

إن الرسوم التي توجد على جدران المقابر لا تبين لنا إلا زوجات وبنات الأثرياء، أما نساء وبنات عامة الشعب فإننا لا نعلم عنهن إلا النزر

اليسير، فنحن نراهن أحياناً في رسوم المقابر وهن يعملن في الحقول، أو في جمع فضلات الحصاد.

وهناك صورة تبين فتاتين تشد إحداهما شعر الأخرى، أو ترقصن لمولاهن، أو يندبن عند موته، وهناك رسوم تصور نساء يطحن القمح في المجرشة الحجرية، مثلما تفعل بعض نساء الفلاحين الآن.

وهكذا كانت حياة الفلاحات شاقة نمطية لا يقطعها غير الرضع، على العكس من نساء وبنات النبلاء والأثرياء اللاتي كن يستمتعن بكل إعزاز ورفاهية.

الفصل السادس

الأحبة والأصدقاء

ليس من الصعب أن نصور التشابه بين الحياة في مصر القديمة والحياة في العصر الحديث، إلا أنه لا مفر لنا من الاعتراف –إذا أردنا التزام الأمانة– بأن عمل المحامي أو الإداري المصري لم يكن شبيهًا تمامًا بعمل زميله في العصر الحديث، أو أن حياة الجندي المصري القديم الذي اشترك في الغزوات كانت شبيهة بحياة الجندي الأمريكي في كوريا، أو الجندي البريطاني في الملايو. إلا أن هناك ناحية واحدة هامة في حياة قدماء المصريين مشابهة تمامًا للحياة في الوقت الحاضر، ونعني بها الحب، فإن رقة الشعب المصري والعاطفة المصرية ما زالت قادرة على تحريك القلوب، ولو أن كتابها وقائليها قد تحولوا إلى تراب منذ آلاف السنين.

إن تا–كا–ات وسنوحي مثلًا لم يكونا ليستطيعا التلاقي إلا نادرًا، وكان لقاؤهما دائمًا تحت إشراف أبويهما، ولكن الشباب يستطيع أن يجد أبدًا وسائل للتلاقي. إذ إن القصائد التي وصلت إلينا تكشف عن إلمام المصريين القدماء بالحب، ولكننا سنفترض الآن أن الحبيبين كانا متصلين، ولنتصور أن تا–كا–ات كانت تستقبل بعض صديقاتها في منزل أبويها. وإنهن يتمددن تحت شجر الجميز بجوار بركة ظليلة، وإن بعض الفتيات الأرقاء يقدمن لهن الطعام والشراب، بينما تغني أخريات وترقصن.

ها هي (تا–كا–ات) في ثوبها الكتان الجميل، وحول عنقها عقد من الزهور، تتمدد على الأرض وقد استندت إلى أحد مرفقيها وراحت تستمع إلى أغنية (زهور الحديقة)، وقد سرحت بخاطرها وتصورت طيف سنوحي أمامها.

وحينما تنتهي الأغنية تبدي المستمعات تقديرهن، وتسرع بعض الأرقاء فيملأن كؤوس النبيذ للمدعوات، ثم تشرع مغنية أخرى في ترديد أغنية أخرى، فيها توسل للمحبوب وتمجيد لخلقه وسجاياه، فلندع هؤلاء الفتيات في سرورهن ومرحهن لنلقي نظرة بداخل منزل سنوحي.

لقد تعلم سنوحي –شأنه في ذلك شأن الشباب المصري المثقف– كيف يقرأ، ولهذا فإننا نراه منهمكًا في تأمل لفافة من ورق البردي. إنه يستعد للحصول على لقب كاهن، وليس من شك في أن أباه الراقد على الفراش يعتقد أن سنوحي منصرف إلى دراسة واجبات الكاهن، ولكن لو أتيح له أن يطلع على محتويات لفافة البردي لانفجر غاضبًا؛ ذلك لأن سنوحي كان يكتب قصيدة غزلية تغنى فيها بحب (تا–كا–ات).

لكن مهما يكن من الأمر، فإن جميع شباب طيبة من الجنسين لم يكونوا ينفقون وقتهم في كتابة قصائد الحب أو قراءتها، أو الاستماع إلى أغاني الحب في الحدائق، فإن كينامون ابن رخماير مثلًا استطاع أن يحصل على موافقة أبيه على اشتراكه في جماعة للصيد، مع صديقه سنحوت وعدد من الشبان النبلاء.

وكانت الجماعة قد خرجت منذ عدة أيام للصيد في الصحراء وراء تلال طيبة، وضربت الجماعة خيامها خلال الليلتين الماضيتين في الصحراء، وكانت تسير في النهار، وها هي قد وصلت الآن إلى المكان الذي كانت تأمل في أن تجد فيه حيوانات الصيد. إذ كان المعروف أن الأسود واللبؤات تسكن في هذه المنطقة، ولكن سنحوت أبدى شكه في العثور عليها، وقال: سيكون من حسن حظنا أن نعثر على عدد قليل من الغزلان والوعول هنا.

أما كينامون فكان أكثر تفاؤلًا، ولكنه لم يكن متلهفًا على الصيد قدر لهفته على الحديث إلى سنموت، الذي كان يرى فيه مثله الأعلى للبطولة. فعندما طلع النهار، وبدأت أشعة الشمس تكسب رمال الصحراء لونًا أحمر، انتظر الصديقان بالقرب من الحافة المنخفضة، بينما راح الكشافون ينشئون أسوارًا حول المنطقة التي سيدفعون حيوانات الصيد بداخلها.

وجلس الشابان على الأرض قبالة بعضهما، وراح كينامون يعبث بقوس سنحوت الكبير، ويبدي إعجابه به بعد أن علم أن صديقه حمل هذا القوس معه إلى سوريا، وكان خدمهما يقفون بالقرب منهما وهم يحملون جعبات مملوءة بالسهام. قال كينامون: قال أبي أن فرعون سيعود في الربيع إلى الأرض التي يعيش أهلها في الجبال، فأرجو أن يقوي آمون ذراعه.

فأومأ سنموت برأسه، وابتسم، ولكنه لم يتكلم، فسأله كينامون: لماذا تبتسم؟

– لأن لسكان الجبال آلهة قوية.

– ولكن آمون انتصر عليها!

– لقد انتصر منخفر أيضًا، ولو لم يكن جنديًا عظيمًا، لما استطاع آمون مساعدتنا. فضحك كينامون وقال: يحسن ألا تدع أبي يسمعك وأنت تقول هذا الكلام.

– أو نوفرت؟

– لن تفهم نوفرت معنى قولك.

– ولكنها كاهنة؟!

– نعم، بيد أنها لم تحترف الكهنوت، إلا لأن أبي أراد ذلك. إنها لا تهتم بشيء أو بأحد غير نفسها.

– إنك تقسو على أختك يا كينامون.

فأجاب كينامون: أؤكد لك إنك تضيع وقتك سدى، ألا تعلم أنها أحرقت قصيدتك العصماء؟ فانبعث سنموت واقفًا، وأخذ قوسه من كينامون، وعلق جعبة سهامه في كتفه، ثم قال وهو يثب فوق الحافة الرملية يتبعه كينامون: إنهم قادمون.

ومن بعيد تناهى إلى سمع الصديقين نباح الكلاب، وصيحات الكشافين العالية. فانتظر الصيادان وزملاؤهما على الحافة، وظللوا عيونهم بأيديهم ليقوها وهج الشمس. وإلى جانب كل صياد وقف خدمه على استعداد لأن يقدموا له جعبة سهام جديدة، عند نفاذ سهام الجعبة التي

معه. وفجأة، برزت غزالتان من قلب الضباب، وهما تعدوان بسرعة في طريقهما إلى الفخ الذي نصب لهما، فأمسك سنموت بقوسه وركع على إحدى ركبتيه، وجذب السهم إلى الوراء، وقبل أن يتمكن من إطلاقه، أطلق كينامون سهمًا ولكنه طاش، فلعن ابن الوزير نفسه، وتهيأ لإعداد سهم جديد، ولكن سنموت سبقه وأطلق سهمه، وفي الحال سقط الغزال الأول صريعًا، وأثار سقوطه زوبعة من الرمال، وصاح سنحوت يحث صديقه على إصابة الغزال الثاني، ولكن كينامون أخطأ ثانية، فضحك صديقه وقال: يجب أن تجيد التصويب أحسن من ذلك في سوريا.

وأسرعا يهبطان المنحدر ومعهما زملاؤهما، وهم يرون سحابة من الرمال تقبل نحوهم بسرعة هائلة، وانفرجت هذه السحابة فجأة، فكشفت عن جماعة كبيرة من الوعول والغزلان والأرانب المذعورة. وانطلقت السهام كالمطر من كل جانب فسقطت سبع غزلان، وتعثر وعل مصاب في مؤخرته، فأسرع كينامون وأطلق عليه سهمًا أصابه لأول مرة. وفجأة، سلم سنموت قوسه وسهامه لخدمه، وقد بدا عليه التبرم، وقال: لقد سئمت الصيد، فلنعد إلى المعسكر. وتبع كينامون صديقه دون أن ينبس ببنت شفة.

وفي الخيمة قال سنموت: إن الإشاعة التي سمعتها صحيحة، فإن منخفر سيعود إلى سوريا بعد شهر أو أقل.

– وهل ستذهب معه؟

– نعم، وأنت أيضًا.

وقبل أن يتمكن كينامون من الإعراب عن شكره لصديقه أسرع سنموت يقول:

– إن أباك يعلم بذلك، وكان سيبلغك هذا النبأ في الوقت المناسب، فقد استطاع القائد أن يقنعه بنقلك إلى فرقتي، ولكني أحذرك من أن الحياة التي ستحياها من الآن محفوفة بالمخاطر والأهوال، وإذا أردت أن تفلت بجلدك من الموت المحقق، فإن عليك أن تجيد التصويب أكثر مما فعلت اليوم.

الفصل السابع

جيش فرعون

ليس في نيتي أن أتتبع سنموت وكينامون إلى سوريا؛ لأن السجلات المصرية القديمة بقيت حتى الآن لتقدم لنا صورة واضحة دقيقة للحرب في آسيا؛ ولهذا فإن الأجدى أن نركز اهتمامنا في الحديث عن نظام الجيوش الفرعونية، ليس فقط في عهد تحتمس الثالث، وإنما في العصور التي سبقته والتي تلته، وأرى أن أبدأ بتسجيل الشكر لمستر ر. ا. فولكنر؛ لأن معظم المعلومات التي سأقدمها هنا مستقاة من بحث نشره في المجلد ٣٩ من مجلة الآثار المصرية.

عندما كانت نذر الحرب تتجمع في الأفق في عصر المملكة القديمة، كان (الموظفون المحليون يطالبون بتشكيل وقيادة حصة من القوات الخاضعة لسلطتهم)، ومن ثم كان الجيش كامل التعبئة يشتمل على عدد كبير جدًا من الكتائب المحلية على هيئة المليشيا، مكونة من رجال سبق أن أدوا الخدمة العسكرية فعلًا، أو حصلوا على قسط معين من التدريب العسكري.

وبعبارة أخرى كان نظام التجنيد قريب الشبه من النظام الإقطاعي، الذي انتشر في أوروبا أثناء القرون الوسطى، أما الوحدة العسكرية الوحيدة

التي ذكرت في النصوص الخاصة بالمملكة القديمة فهي (الأورطة)، بيد أن حجمها غير معروف، إلا أنه إذا كان صحيحًا ما ورد في النصوص من أن الجيوش كانت تتكون من عشرات كثيرة من الآلاف، فلا ريب في أن الوحدة كانت في حجم الفرقة.

كانت مساوئ هذا النظام هي أنه يضع سلطة كبيرة في أيدي الحكام المحليين، ومن ثم فعندما ضعفت سلطة الملوك كما حدث في الفترة التي أعقبت اضمحلال المملكة القديمة، اشتبك نبلاء الأقاليم مع بعضهم في حروب طاحنة، فعمت الفوضى.

بيد أنه من المحتمل أنه كان هناك جيش صغير عامل تحت قيادة الملك مباشرة، وإلا لتعذر على فرعون أن يعالج الطوارئ المفاجئة كالغزو أو التمرد؛ ولذلك فإن الأرجح أن الملك كان يحتفظ بقوة صغيرة من الرجال المدربين، يستطيع أن يستخدمها بمجرد حدوث أي طارئ.

توجد على جدران مقابر المملكة القديمة بسقارة مناظر معارك، توحي بأن القوات المصرية كانت حسنة التدريب عالية الكفاية. ومن المحتمل أن طلائع القوات كانت تشكل من جنود نظاميين مدربين يدعمهم مجندون. وكان الملوك يعمدون إلى استدعاء الرجال وحشدهم من جميع أنحاء البلاد إذا ظهرت نذر الحرب في الأفق في عصر المملكة القديمة.

وينبغي ألا يغيب عن البال أن القوات كانت تحشد أيضًا في وقت السلام؛ لا لأداء المهام العسكرية فحسب، وإنما أيضًا لتنفيذ المشروعات العامة كالعمل في المحاجر.

وكان لقب (جنرال) يطلق أحيانًا على الموظفين الذين ينفذون أعمالًا ليست ذات طبيعة عسكرية، فمن الجنرالات المعروفين –من الأسرة الأولى إلى الأسرة السابعة– مثلًا، كان هناك ثلاثة قادوا الحملات إلى سيناء، وثلاثة تولوا حملات المحاجر إلى وادي الحمامات، وواحد كان مسؤولًا عن طرة، ومن الآخرين أرى الأمير كامتجنيت، ابن الملك العزيزي الخدمة خارج البلاد، بينما تولى آخر اسمه الخرديني رئاسة هيئة كاملة من المجندين الجدد، ومن المحتمل أن ثالثًا مقره معبد فيلة، كان يتولى قيادة القوات النوبية المساعدة.

إن الضابط الوحيد المنتظم الذي ذكرت رتبته في نقوش المملكة القديمة هو (الجنرال) أو (قائد الجيش)، بيد أنه من الواضح أنه كان هناك ضباط آخرون مساعدون، وليس من العسير تمييز هؤلاء الضباط الآخرين في رسوم المعارك الموجودة في مقابر سقارة، إذ إن هؤلاء الضباط كانوا يحملون علامات تميزهم عن جمهرة الجنود العاديين.

كانت الخدمة العسكرية –التي لم تعرف في أوربا إلا منذ قرنين تقريبًا– نظامًا معمولًا به في المراحل المبكرة من تاريخ مصر، فمنذ خمسة آلالف سنة كان الشبان المصريون في سن الخدمة العسكرية يستدعون لأداء هذه

الخدمة في المناطق المحلية، ثم يعودون بعد ذلك لأعمالهم العادية، ولكنهم يبقون تحت الطلب إذا دعت الضرورة لاستدعائهم. وكانت الدولة تقدم لهم الغذاء والكساء أثناء فترة الخدمة العسكرية، ولكننا لا نعلم هل كانوا يحصلون على أجور أم لا.

ومن الوظائف الهامة التي اضطلعت بها القوات في عصر المملكة القديمة، وما بعدها تعيين حاميات للقلاع ونقط الحراسة الموجودة على حدود مصر، والطرق المؤدية إلى آسيا والنوبة.

وأثناء المملكة الوسطى -أي بعد انتهاء فترة الفوضى التي أعقبت سقوط المملكة القديمة- حصل حكام الأقاليم على سلطة كبيرة، وسمح لهم بالاحتفاظ بجيوشهم الخاصة. ومن المحتمل أنه كان يجبر هؤلاء أن يقدموا قوات معينة للعمل في خدمة الملك، ويقول فولكنر أنه كان هناك جيش عامل يتكون من المجندين.

تدل النقوش المتخلفة من المملكة الوسطى على أنه كان هناك رتب عسكرية إلى جانب رتبة (الجنرال)، فمثلًا كان هناك (قائد قوات الصاعقة) و(مدرب القوات غير العاملة). ويحتمل أن (قوات الصاعقة) كانت مشكلة من رجال مختارين للقيام بأعمال الهجوم، أما رجال (القوات غير العاملة) فكانوا أصلًا رجالًا غير عسكريين، ولكنهم سرعان ما أصبحوا (حرس الملك الخاص) الذي يرافقه كلما خرج للحرب.

وكان (كتبة الجيش) يتولون الجانب الإداري في الجيش، وكان عدد هؤلاء الكتبة كبيرًا، وكثيرًا ما يصادفهم الإنسان كلما اطلع على سجلات الحملات. وكانت لهم أيضًا درجات مختلفة، فهناك الكاتب الصغير الذي كان يعني بشؤون الفصيلة الصغيرة، والكاتب الكبير الذي كان يدير شؤون كتيبة كاملة. وكانت أعمال هؤلاء الكتبة شبيهة بأعمال (صول التعيين) في الجيوش الحديثة، مع فارق واحد هو أن كتبة الجيوش الفرعونية كانوا مسؤولين أيضًا عن تجنيد الشبان المطلوبين للخدمة العسكرية.

إلا أننا لن نستطيع الحصول على صورة كاملة لنظام الجيش المصري القديم، إلا إذا درسنا سجلات المملكة الحديثة، ففي عصر الأسرة الثامنة عشرة أصبح المصريون الشعب العسكري الوحيد والأول في ذلك الحين، ويمكن مقارنة هذا الموقف بانتصارات الجيش الفرنسي عقب اندلاع نار الثورة الفرنسية وما يتبعها من ظهور نابليون.

فبعد سقوط المملكة المصرية الوسطى، غزا مصر البرابرة الأسيويون، الهكسوس أو (ملوك الرعاة)، ولكن أمراء طيبة المحاربين استطاعوا طرد الهكسوس من مصر، وأنشأ خلفاؤهم الأسرة الثامنة عشرة.

وبإنشائها بدأ مجد مصر العسكري، ولقد صمم ملوك هذه الأسرة (وهم أحمس وأمينوفيس الأول وأمينوفوس، ومن تبعهم من ملوك يحملون اسم تحتمس) على تأمين بلادهم ضد خطر الغزو من ناحية آسيا في المستقبل، فتغلغلوا في فلسطين وسوريا وأنشؤوا حامية قوية هناك.

وكان أعظم هؤلاء الملوك شأنًا تحتمس الثالث، الذي يعتبر بحق (نابليون مصر القديمة)؛ لأنه بسط سيطرة مصر حتى نهر الفرات.

كان فرعون هو الرئيس الأعلى للجيش، وكان هو الذي يتولى قيادته عادةً في الميدان. وكان الوزير –وعمله شبيه بعمل وزير الحربية في الوقت الحاضر– يصدر أوامره إلى مجلس الحرب الذي يتولى مساعدته.

أما في الميدان، فكان الملك يستشير كبار ضباطه قبل الاشتباك في المعارك، وفي ذلك الحين كان الملك يحتفظ بجيش عامل كبير منظم على أساس قومي من جنود نظاميين، وقد كتب فولكنر يقول:

"كان جيش الميدان العامل مقسمًا إلى فرق، كل واحدة منها وحدة كاملة من وحدات المشاة وقوات العربات، ويبلغ عددها حوالي ٥٠٠ رجل، وفي قاديش (وهي معركة مشهورة في عهد رمسيس الثاني) كان قواد الفرق من الأمراء، وإن كان فرعون نفسه تولى قيادة إحدى هذه الفرق، وكانت تطلق على هذه الفرق أسماء آلهة المملكة".

وكان الجيشان الرئيسيان هما جيش المشاة وجيش العربات، ومن الحقائق الغريبة أنه لم يكن هناك فرسان، ولعل ذلك راجع إلى أن الجياد كانت حينذاك من سلالات ضعيفة، بحيث لم تكن تتحمل الأعباء العسكرية الضيقة. بل إن العربة نفسها كانت سلاحًا جديدًا نسبيًا، أدخله الهكسوس الغزاة، واستعملت بكثرة على غرار استعمال الدبابات المصفحة في الجيوش الحديثة؛ لتكون ستارًا يتقدم المشاة خلفه.

فعند نشوب المعركة كانت العربات هي التي تتحمل عبء الهجوم، بينما يزحف المشاة خلفها؛ لاستغلال نجاح التكتيك أو لعرقلة تقدم العدو إذا ساء الموقف. وكانت العربات تهاجم العدو أيضًا في لحظة النصر لتحول هزيمته إلى كارثة، وليس من شك في أن الرسوم التي نراها على المقابر، والتي تمثل فرعون وهو منطلق بعربته فوق أشلاء القتلى والمحتضرين تمثل هذه المرحلة.

كانت العربات خفيفة، خالية من اليايات، ذات عجلتين. وقد عثر على بعضها في مقابر قدماء المصريين (كمقبرة توت عنخ آمون)، وكان رجلان يستقلان كل عربة، أحدهما للقيادة والآخر للقتال. وكان الأخير مسلحًا بأقواس وسهام ورماح ودرع، وبذلك كان قائد المركبة –كما وصفه هومر في شعره– يتعرض للخطر الداهم؛ لأنه لم يكن مسلحًا.

أما عمله فكان توجيه العربة بحيث تتخذ أحسن وضع يتيح لزميله المقاتل إطلاق سهامه وقذف رماحه، وكانت كل عربة يجرها جوادان، وكان النظام المتبع يقضي بتقسيم العربات إلى مجموعات، تتكون كل مجموعة منها من ٢٥ عربة. وكان هناك أيضًا (ملاحظو حظيرة) مسؤولين عن سلامة الجياد.

أما أسلحة المشاة فكانت مختلفة، فالبعض مسلح بالأقواس والفؤوس والهراوات، بينما كانت هناك كتائب من رماة الرمح المسلحين بالدروع. وكان طول هذه الرماح ٩ أقدام أحيانًا، ومن المحتمل أنها كانت تستعمل على غرار استعمال الحراب في القرون الوسطى.

وكانت هناك (فصيلة الصفوة) من المشاة، وتعرف باسم (شجعان الملك) أو (الشجعان). وكان واجب رجال هذه الفصيلة قيادة الهجوم، وكانت هناك بعد ذلك قوات خاصة لخدمة الحاميات والـ(مدجاي) المشهورين، وهم شرطة الصحراء.

كانت الحمير هي وسيلة النقل المستعملة في الجزء الأول من الأسرة الثامنة عشرة، ولكن تحتمس الثالث أدخل العربات التي تجرها الثيران لنقل القوارب التي استخدمت لعبور نهر الفرات، وفيما بعد أصبحت العربات التي تجرها الثيران جزءًا من مهمات الجيش المصري.

وفي هذا الوقت، أصبح الجيش المصري نظام هرمي للرتب العسكرية، فكان هناك اسم خاص للجنود معناه (أعضاء الجيش)، وكانت أصغر رتبة للضابط هي (أعظم الخمسين) ثم (قائد المائة) وفوقه (حامل العلم). وفي عهد رمسيس (أواخر عصر المملكة الحديثة) أصبح (حملة الإعلام) قوادًا لكتائب، تتكون كل منها من ٢٠٠ رجل من المشاة.

وكانت هناك أيضًا أسماء تميز المتطوعين عن المجندين، إذ يبدو أنه أصبح من المستطاع حينذاك احتراف الجندية. وفوق قائد الكتيبة يوجد (ضابط قوة) ثم (قائد قوة)، الذي يحتمل أنه كان يتولى قيادة لواء يتكون من عدة فصائل، وهناك بعد ذلك (قائد الجيش). ومن المحتمل أيضًا أنه كان هناك موظفون إداريون مثل (كاتب الجيش) و(كاتب المشاة) و(كاتب الحشد) و(كاتب التوزيع).

الفصل الثامن

فن الكتابة

كان المصريون القدماء قومًا عمليين؛ ولهذا كان التقدم الباهر الذي أحرزوه في الهندسة المعمارية والنحت والفلك والحساب وليد المنفعة الخالصة أساسًا، ولكنهم بعكس الإغريق كانوا أقل حبًا للاستطلاع، ولهذا لم تهمهم المعرفة لذاتها؛ لأنهم كانوا يحبون كل ما يعود عليهم بالفائدة.

ومع ذلك فإن الإغريق مدينون للمصريين القدماء بالشيء الكثير، فقد وجدوا في مصر رصيدًا هائلًا من المعرفة العملية النافعة التي وإن لم تكن علمًا بالمعنى المفهوم من الكلمة، فإنها كانت –على الأقل– مادة العلم الخام.

لقد برع المصريون أيما براعة في الرياضيات العالية؛ لأنهم كانوا قومًا عمليين كما أسلفنا، وليس أدل على ذلك من ضخامة مبانيهم، وبالأخص الأهرامات التي كان بناؤها إلمامًا تامًا بالرياضيات العالية.

ولم يقتصر نبوغ المصريين على الرياضيات، وإنما امتد أيضًا إلى الفنون، ولكن روائع فن النحت التي تذهلنا لم تخلق لذاتها، بل إن صانعيها لم يكونوا يرغبون في أن تقع عين بشرية على الكثير منها؛ لأن بعضها

يصور بدقة وبطريقة واقعية حياة الميت. ولهذا وضع في غرف المقبرة البعيدة عن الأنظار باعتبارها (أي المقبرة) المنزل الذي تسكنه الروح.

وهناك –علاوة على ذلك– المناظر الجميلة المصنوعة من الجص أو المرسومة، التي تثير بهجتنا حينما تقع عيوننا عليها في المقابر والمعابد، تلك المناظر التي تصور لنا بوضوح جميل حياة المصريين القدماء اليومية. وهذه المناظر لم توضع في أماكنها للمتعة أو الزينة، ولا للإعلان عن ثراء الميت وأهميته، وإنما كان الغرض منها سحريًا، وهو ضمان حصول الموتى في حياتهم الثانية على كل ما كانوا يملكونه ويتمتعون به في حياتهم الحاضرة، فللضابط الميت جنوده، وللسيد الثري مزارعه وضياعه، فضلًا عن كميات هائلة من الطعام والذبائح.

وقد بدأت الكتابة في مصر القديمة بطريقة عملية أيضًا، كانت أداة عمل ووسيلة يستطيع الإنسان أن يتصل عن طريقها بالآخرين بغير أن يضطر لمقابلتهم أو التحدث إليهم، وسيلة لتدوين المذكرات والحسابات وتسجيل الأحداث وكتابة النصوص الدينية.

وكانت الكتابة الهيروغليفية قد تقدمت كثيرًا في عصر الأسرة الأولى، أي حوالي سنة ٣٢٠٠ ق.م. وتوجد المسلة الأولى للرسوم والعلامات التي تتشكل منها اللغة الهيروغليفية محفورة أو مطبوعة على بعض الأوعية الحجرية وغيرها من الأدوات. وكانت الرموز الهيروغليفية مكيفة ومنسقة

بطريقة تجعل في الإمكان قراءتها من اليمين إلى اليسار وبالعكس أيضًا، بل ورأسيًا كذلك تبعًا لاحتياجات طابع الزخرفة.

وطوال الثلاثة آلاف عام من التاريخ المصري استخدمت الكتابة الهيروغليفية في جميع الأغراض الدينية، كالحفر على جدران المعابد والمقابر وعلى جميع أنواع التماثيل، ولكنها كانت صعبة الاستعمال في أغراض الحياة اليومية لشدة تعقيدها، ومن ثم ابتكر المصريون القدماء رسومًا مختصرة للكتابة العادية أطلق عليها اسم (الهيرية)، وكانت هذه اللغة مطابقة للغة الهيروغليفية، ولكن رموزها كانت أسهل كتابة.

لقد استقيت معظم الفقرات التي أوردتها في هذا الكتاب من وثائق مكتوبة باللغة الهيرية على ورق البردي، وساعد اختراع وسيلة الكتابة هذه في وقت مقتدم على تقدم لغة الكتابة المصرية، ولكن المصريين القدماء لم ينهجوا نهج البابليين الذين استعملوا الطفل المخبوز كمادة للكتابة، إذ توفرت لهم مصادر غير محدودة من أعواد البردي التي تنمو بكثرة هائلة على حافة نهر النيل.

وفي أول الأمر، كان ساق النبات يجرد من طبقته الخارجية، ويقطع إلى شرائط طويلة توضع جنبًا إلى جنب، بينما توضع شرائط أخرى بالعرض على إحدى وجهي الشرائط الطولية، وتضغط اللوحة كلها بعد تجفيفها، وبهذه الطريقة أمكن تسجيل (كتب) على لفائف من ورق البردي، بلغ

طول بعضها أحيانًا ١٠٠ متر، وفيما بعد صدر المصريون لفافات ورق البردي إلى أجزاء أخرى من العالم كاليونان مثلًا.

والواقع إننا مدينون لمصر القديمة بالمحافظة على الأدب الإغريقي؛ نظرًا لأن لفافة البردي كانت هي الوسيلة التي حفظ بها الأدب الإغريقي، ونقل من العصور المبكرة إلى حوالي القرن الثاني أو الثالث بعد الميلاد.

وفي مرحلة مبكرة من التاريخ المصري تطورت الكتابة التي ابتكرت أصلًا لأغراض المنفعة إلى فن؛ ذلك لأن المصريين –كجميع الشعوب المتحضرة– اكتشفوا أن للكلمات سحرًا خاصًا، وسرعان ما ظهر بينهم شعراء وكتاب قصص وروايات استخدموا اللغة لا لغرض إلا تهيئة المتعة، وسنقدم في هذا الفصل طرفًا من نثر هؤلاء الكتاب.

من المحتمل أنه قبل اختراع الكتابة بوقت طويل، كان هناك شعر وقصص شعبي يتناقله الناس بالفم، كالشعر الحماسي الذي أنتج في النهاية إلياذة وأوديسياهومر، إلا أنه حتى بفرض أنه كان للمصريين شعر حماسي قبل الأسرة الأولى، فإن هذا الشعر لم يعش طويلًا، وإن كان هناك بعض قصص خرافية عن مغامرات سحرية سجلّها الكتاب فيما بعد، ولهذا كان لا بد أن تكون لها جذور في طفولة الجنس المصري، وإذا اتخذنا من الأدب الذي بقي حتى اليوم مقياسًا، فإننا نستطيع أن نحكم بأن المصريين القدماء كانوا يحبون القصص والسحر والمعجزات؛ لأن ما خلفوه من قصص لا ينطوي إلا على قدر ضئيل من الحقيقة والواقع.

ومن أقدم القصص التي سجلها المصريون القدماء قصة (الملك خوفو والساحر)، وخوفو طبعًا هو باني الهرم الأكبر في عام ٢٥٠٠ ق.م. والقصة نفسها قديمة جدًا، ولو أن الوثيقة التي نقل إيرمان القصة عنها ترجع إلى عصر الهكسوس، أي بعد مضي ١٠٠٠ عام على حوادث القصة.

وها هي القصة:

"طلب الملك خوفو من أولاده أن يسردوا عليه قصصًا عن عظماء سحرة الماضي، فبدأ الابن خفرع (باني الهرم الثاني) يسرد له تفاصيل حدث عجيب وقع أيام الملك نبقة، وهو أحد أسلاف خوفو. قال إنه كان هناك ساحر اسمه يوباأولر، وإن زوجة هذا الساحر كانت خائنة، وارتاب الساحر في زوجته، وفي أنها تخونه مع رجل كان يقضي وقتًا معها في (بيت الملذات) في بحيرة يوباأونر، وصنع الساحر تمثالًا لتمساح من الشمع طوله سبعة أشبار، وقال لكبير خدمه: عندما يجيء المواطن المعروف لك ويستقل الزورق جريًا على عادته اليومية، ألقِ التمساح في البحيرة خلفه".

فأخذ كبير الخدم التمساح ومضى لشأنه، وبعد قليل بعثت زوجة الساحر وصيفتها إلى رئيس الخدم الذي كانت البحيرة تحت إشرافه؛ لتقول له: "عليك بوضع الأثاث في منزل البحيرة؛ لأنني سأذهب للإقامة فيه"، فنفذ كبير الخدم الأمر وأثث المنزل بأفخر الرياش، وبعدئذ انتقلت الزوجة ووصيفتها إلى المنزل لتتخذ منه وكرًا لملذاتها ومجونها. فإذ كان المساء جاء

العشيق تبعًا لعادته اليومية، فأحضر كبير الخدم التمساح الشمعي وألقاه في البحيرة خلف العشيق، فتحول إلى تمساح حي طوله سبعة أشبار وأمسك بالعشيق.

ولم يذهب الساحر إلى قصر الملك سبعة أيام متوالية، كان العشيق خلالها في الماء لا يستطيع إفلاتًا أو فكاكًا.

وعندما انقضت الأيام السبعة استفسر الملك عن الساحر، فاستدعاه رجال القصر، فقال للملك: "هلّا تفضلتم جلالتكم وجئتم إلى منزلي، لتأمل الأعاجيب التي تحدث في عهدكم؟".

وذهب الملك معه، واستدعى الساحر التمساح من الماء، وقال له: هات العشيق معك. فتقدم التمساح ومعه العشيق، فقال الملك: إنه تمساح مخيف! فمال الساحر فوق التمساح والتقطه فتحول إلى شمع في الحال!

ونهض الأمير بوفر بعد ذلك ليتكلم، وحدث الملك خوفو عن أعجوبة حدثت في عهد جده الملك زوسر، وكان بطلها كبير السحرة زازمامونخ.

بدأت القصة حينما شعر الملك بالملل وراح يبحث عن تغيير، فجمع ضباط القصر وطلب منهم أن يقدموا له اقتراحات في هذا الشأن، ولكن الجميع لم يستطيعوا إرضاءه، وأخيرًا استدعى زازمامونخ الذي قال له:

"إذا ذهبتم جلالتكم إلى بحيرة المنزل العظيم، وأمرتم بإحضار قارب ملكي، وجميع السيدات الحسناوات الموجودات في حريم القصر وإركابهن في القارب، فستشعرون بالتغيير عندما ترون كيف تجدف هؤلاء السيدات جيئة وذهابًا في البحيرة، وعندما ترون منظر أعشاش البهجة في بحيرتكم ومنظر الحقول والشواطئ الجميلة، فسينشرح قلبكم"، واستصوب الملك الفكرة، ولكنه قرر إدخال تحسينات عليها.

قال الملك الساحر: سأفعل ذلك، سأستقل القارب، فأحضر لي عشرين مجدافًا من الأبنوس الموشى بالذهب، احضر لي عشرين سيدة من ذوات السيقان الجميلة والفتنة الخلابة، وأرسل إلى القارب عشرين شبكة لترتديها هذه السيدات بدل الثياب.

ونفذ الساحر أمر الملك، وأخذت النساء تجدفن جيئة وذهابًا في البحيرة، فانشرح صدر الملك وطابت نفسه. وحدث أن فقدت ضفائر زعيمة النساء وتشابكت في المجداف، فسقط من أذنها قرط من معدن الملكيت على شكل سمكة في الماء، فسكتت المرأة، وكفت عن التجديف، كما صمتت النساء الجالسات بجانبها وكففن بدورهن عن التجديف، فسألها الملك: لماذا لا تجدفين؟. فأجابت: إنني أريد وعاء زيت الشعر؛ لأصلح ما فسد من زينتي.

وأدرك الملك إن المرأة متألمة لضياع قرطها، فأمر باستدعاء كبير السحرة، فجيء به على الفور. وأوضح الملك الموقف للساحر، وفي التو

أجرى الساحر العمل الذي أجراه موسى فيما بعد عندما عبر بنو إسرائيل البحر الأحمر، ولكن على نطاق ضيق. تمتم الساحر ببعض تعاويذه، ووضع جانبًا من ماء البحيرة فوق الجانب الآخر، فوجد القرط معلقًا في قطعة من غناء خزفي محطم، فالتقطه وقدمه للمرأة.

أما الماء –وكان عمقه ١٢ شبرًا في منتصف البحيرة– فأصبح ارتفاعه أربعة وعشرين شبرًا بعد أن وضع جزء منه فوق الجزء الآخر، (وبعبارة أخرى أن الساحر طوى الماء كما يطوي الثوب)، وهنا عاد الساحر يتمتم ببعض تعاويذه السحرية، فعاد الماء إلى حالته الأولى في البحيرة.

إن هذا جزء فقط من القصة، ولكنه يكفي بيان ما في هذه القصص من روعة وعمق وخيال، فهي –في رأيي– لا تقل جمالًا عن قصص ألف ليلة وليلة وبوكاشيو. وهناك قصص أخرى رائعة لا يتسع لها المجال هنا، كقصة سنوحي التي جرت حوادثها في عصر الأسرة الثانية عشرة وغيرها.

كان هذا هو نوع القصص الذي يحب المصريون المثقفون سماعه أو قراءته، وهناك مؤلف شامل لهذه القصص وضعه إيرمان بعنوان (الأدب عند قدماء المصريين).

الفصل التاسع

العمال والصناع

تحدثنا حتى الآن عن الطبقة المتعلمة التي كانت تحكم مصر: كبار الموظفين ورؤساء الجيش، والمحامين وجامعي الضرائب، والكهنة والكتبة. ولقد تركت هذه الصفوة المثقفة سجلاتها المكتوبة في قبورها، ولكن عامة الشعب –وهم صانعو ثروة مصر– سواء أكانوا بنائين أو فنانين أو صناعًا أو عمالًا في الحقول أو في الورش.

كل هؤلاء التزموا الصمت فلم يتحدثوا عن أنفسهم، وما كنا لنعرف شيئًا عنهم لولا كلمات قليلة سمح لهم بأن يقولوها فيما أعدوه من رسومات بقبور سادتهم، بل إن جهابذة المهندسين الذين صمموا وخططوا الأهرامات والمعابد، وأولئك الذين نظموا ودربوا القوة الكاملة للحرارة التي كانت تستخرج كتل الجرانيت الهائلة من المحاجر لتصنع منها التماثيل الضخمة، وبناة القوارب التي تستطيع أن تنقل ٦٥٠ طنًا من الجرانيت من أسوان إلى ممفيس= لم يتركوا أية سجلات مكتوبة عن الوسائل التي كانوا يستخدمونها في عملهم؛ ولهذا يتساءل المرء دائمًا: كيف صنعوا ذلك؟

من حسن الحظ أن بعض نبلاء المملكة القديمة وما بعدها، أمروا بأن تنقش على جدران قبورهم رسوم تبين أعمال خدمة الكثيرين. ومن دراسة

هذه الرسوم بعناية، وتأمل ما بقي من الأدوات التي كان العمال يستعملونها في تلك العصور، استطاع مؤرخو التاريخ المصري القديم الوقوف على معلومات كثيرة عن العمال والصناع في مصر الفرعونية، وبذلك يمكن الإجابة على السؤال السابق بشكل مُرضٍ في أغلب الأحايين.

ومن هؤلاء النبلاء الوزير رخماير الذي كان يشرف –إلى جانب أعماله الأخرى الكثيرة– على الضياع الكبيرة التي كانت ملحقة بمعبد آمون، كما كان أيضًا –طبقًا للنقوش الموجودة على جدران مقبرته– الرئيس الأعلى للورش الكبيرة الملحقة بالمعهد، حيث كان أحد أبنائه مر–ي يتولى الإشراف عليها. فلنستخدم نقوش المقبرة لإرشادنا، ولنتتبع الوزير أثناء قيامه بجولة تفتيشية.

***

لقد انقضت عدة أسابيع منذ خرج تحتمس الثالث بجيشه من مدينة طيبة للقيام بغزوة جديدة، وتبع شبان كثيرون الملك، ومن بينهم كينامون ابن رخماير وصديقه سنموت.

وبرحيل فرعون أصبح الوزير مسؤولًا عن تصريف شؤون البلاد، وبذلك تضاعفت أعماله، ففي الأمس استقبل رخماير –بالنيابة عن فرعون– رسلًا قدموا من بانت وكفيتوي (كريت) وسوريا والنوبة، جاؤوا لتقديم فروض الطاعة، والهدايا لفرعون مصر.

وجلس رخماير ساعات طويلة على المقعد الموشي بالذهب ومن حوله رجال الحاشية، بينما أخذ الرسل يمرون أمامه وهم يحملون الهدايا على أكتافهم، وراح الكتبة يسجلون أسماء وعدد القطع والهدايا التي أحضروها من بلادهم بحسب ترتيب تقديمها. وكان كل رسول يقدم منتجات بلاده، وإن لم تخلُ جميع الهدايا من كمية كبيرة من الذهب، وأعقب ذلك تقديم عدد كبير من الأرقاء، وكان معظمهم من النساء والأطفال للعمل في مصانع النسيج بالمعبد.

وفي اليوم السابق على استقبال الرسل، تولى رخماير رئاسة المحكمة العليا، وكان يومًا شاقًّا للغاية؛ نظرًا لكثرة المنازعات، ولشدة حرارة الطقس في ذلك اليوم.

وكان رخماير رجلًا عادلًا، اتخذ له شعارًا في القضاء "أن يحكم بين الناس بالعدل، سواء أكانوا فقراء أم أغنياء"، ولهذا كان يلاقي متاعب جمة إذا كان أحد طرفي النزاع شخصًا من أصحاب النفوذ في البلاط الملكي، وبالأخص لأن له أعداء يكيدون له، ومع ذلك فإنه كان يبذل قصارى جهده لإحقاق الحق ونصرة المظلوم، وأما اليوم فكان مقررًا أن يزور الوزير وحاشيته ورش معبد آمون لتفقد سير العمل فيها.

كان الوزير يحب هذه الزيارات؛ للترفيه عن نفسه من ناحية، ولأنه كان من المعجبين بالأعمال اليدوية من ناحية أخرى. وكانت له آراؤه الخاصة في الكيفية التي ينبغي أن يؤدي كل صانع عمله بها، ولكن كثيرًا ما

كانت هذه الآراء تتعارض مع آراء ابنه مر–ي المشرف على الورش، شأنه في ذلك شأن الأبناء الذين يعتقدون دائمًا أنهم يفهمون أحسن من آبائهم.

وإذ وقفت العربات أمام أبواب المعبد الضخمة، هبط الوزير وحاشيته منها يتبعهم حملة المراوح. كانت الورش كبيرة جدًا، تبعث منها ضوضاء تصم الآذان، اختلطت فيها أصوات المطارق بأصوات المناشير والمثاقب، وامتلأ جو المكان بمجموعة مختلطة من مختلف الروائح، بين رائحة نشارة الخشب والزيت وصهر المعادن والعرق.

واستقبل مر–ي أباه، وكان شابًا مديد القامة يرتدي شعرًا مستعارًا أسود اللون، ويحمل عصا صغيرة تدل على منصبه، ورافق أباه في تنقلاته من غرفة إلى أخرى، فدخل الجميع أولًا مصنع الحلي، حيث كان بعض العمال يصوغون ويصقلون حبات من معدن الملكيت واللازورد، وغيرها من الأحجار شبه الكريمة.

وكانوا يستخدمون مثاقب دقيقة من البرونز لعمل الثقوب، وعلى (بنك) آخر وضعت قطع صغيرة من الزجاج بنظام معين، لصنع تلبيسة رائعة لغطاء صدر من الذهب. ولم تكن هناك أية أحجار كريمة كالماس أو اللؤلؤ. والتقط رخماير غطاء الصدر الذهبي وتأمل (التلبيسة) ثم قال ساخرًا: زجاج! لقد كان أسلافنا يستعملون الفيروز والجمشت يا بني! يا له من عصر! ثم مضى في طريقه إلى الغرفة التالية، حيث كان الصناع يصنعون أوعية من الأحجار باستخدام مثاقب حجرية ثقيلة.

وزار الوزير ومن معه بعد ذلك ورشة النجارين، وكان الصناع قد صنعوا بعض القطع ليفحصها الوزير: يد مروحة، وناووسًا مطعمًا، وتمثالًا من الأبنوس به تركيبات ذهبية، وله رأس على شكل صولجان من الفضة.

وبعد أن تأمل رخماير هذه القطع، راح يراقب الصناع وهم يعملون، فرأى في طرف الغرفة رجلين ينشران كتلة من الخشب ليصنعا منها ألواحًا، مستعملين في ذلك (الأسافين) لإبقاء الشق مفتوحًا. وعلى مقربة كان نجار آخر ينشر الألواح في أطوال مناسبة لصناعة إحدى الخزائن، ولو تأملنا الأدوات التي يستعملها هؤلاء النجارون لوجدناها مماثلة تمامًا للأدوات التي يستعملها النجارون اليوم، باستثناء المطرقة (الشاكوش) الذي لم تكن له يد.

وكان أحد الرجال يذيب صمغًا في إناء وضع فوق نار مشتعلة، بينما كان آخر يجرش مادة الطلاء بقطعة من الحجر الرملي. ورأى الوزير أيضًا رجلين يطليان صندوقًا كان سيوشى بعد ذلك، فراح يتأملهما عن كثب، وأخيرًا أبدى إعجابه بعملهما. وكان الوزير لا يزال يجري بأصابعه فوق ذقنه وهو شارد الذهن، عندما ناداه ابنه من طرف الغرفة الآخر قائلًا: ألا تريد رؤية عمال المعادن يا أبي؟

– بالطبع!

والواقع أن الوزير كان كارهًا رؤية ورشة المعادن في ذلك اليوم؛ لأنه كان يومًا حارًا جدًا، ولهذا كان يريد أن يتجنب دخول غرفة الأفران

والمعادن المنصهرة، ولكنه كان مضطرًا إلى رؤية عملية صب المحاور البرونزية الكبيرة، التي كانت تعد يومئذ لبوابات المعبد الجديدة. وهكذا دخل الوزير الغرفة التي كسا الدخان جدرانها بطبقة سوداء، وتبعه رجال الحاشية الذين كانوا يسيرون بحذر شديد؛ خشية تلوث ثيابهم ناصعة البياض.

كانت الضوضاء عالية بحيث اضطر مر–ي إلى رفع صوته عند الحديث ليعلو على صلصلة المطارق، وإلى جانب الضوضاء كان هناك زئير عالٍ متقطع منبعث من الأفران العديدة، التي كان يقف بجوار كل فرن منها رجل شبه عارٍ يدير منفاخًا بالقدم.

وراح الجميع يجففون العرق الذي انسال على جباههم، وقد بدت عليهم علامات الضيق، ورأى الوزير قالبًا للمحاور مصنوعًا من الطفل وموضوعًا على الأرض، وبالقرب منه أباريق كبيرة مملوءة بمخلوط من النحاس والزنك بنسب صحيحة، وكان بالقالب سبع عشرة فتحة لصب المخلوط منها، وتعتبر هذه العملية من أدق العمليات؛ لأن أي تراخٍ في الصب يقضي على العملية كلها. وبدأت عملية الصب، فرفع الرجال الأباريق المحتوية على المخلوط المنصهر، وصبوه من فتحات القالب في نظام بديع، يدل على الخبرة وطول المران. وأبدى الوزير ارتياحه وانصرف الجميع وهم يحمدون الله على انتهاء زيارة ورشة الحدادين.

وفي غرفة أخرى شاهد الوزير طارقي المعادن وهم يعملون في صياغة الذهب والفضة، ولاحظ الوزير بارتياح كيف كان الذهب والفضة يوزنان

قبل صياغتهما وبعد الصياغة، لضمان عدم سرقة شيء منهما، فأومأ برأسه للدلالة على استحسانه لهذه الحيطة.

وهكذا انتهت زيارة الوزير وحاشيته للورش، وانصرفوا إلى الميناء للإشراف على إفراغ كتل هائلة من الحجر الجيري كانت قد وصلت من ممفيس للتوسع في بناء معبد آمون–رع بناءً على أمر فرعون، جريًا على العادة التي كانت متبعة، وهي أن يحاول كل ملك يرتقي العرش توسيع معبد ملك الآلهة وتحسينه، بشكل لم يسبقه إليه أحد من أسلافه.

وكان أحد القوارب –وطوله ١٥٠ قدمًا– يرسو بجانب رصيف الميناء، بينما كان قارب آخر يقترب من الرصيف، وقد وقف ملاحوه على استعداد للقيام بعملية الإرساء وفي أيديهم الحبال، واستعدوا لإلقاء المراسي الحجرية الثقيلة في الماء، بينما كان أحد الملاحين يقيس عمق الماء بقصبة خشبية طويلة، وبقي الوزير إلى أن انتهى تفريغ حمولة أحد القوارب، ثم استقل مركبته، ومضى إلى منزله.

***

إن هذه الصورة المصغرة التي قدمناها، والتي تقوم أساسًا على الأدلة المستقاة من الرسوم المنقوشة على جدران مقبرة رخماير، توضح فنون العمل الذي كانت تؤديه طوائف معينة من العمال المصريين في فترة واحدة من التاريخ المصري القديم.

وليس من شك في أن الصورة المشار إليها تبدو غير مكتملة إذا لم نتحدث عن بعض الأعمال والفنون التي برع المصريون، فيها كبناء الأهرامات والمعابد والتماثيل ونسج الملابس.

إن الناظر إلى التماثيل الضخمة الموجودة في المتاحف أو في أماكنها الأصيلة والمصنوعة من كتل هائلة من الأحجار، لا يملك إلا أن يتساءل كيف استطاع المصريون القدماء الحصول على مثل هذه الكتل دون الاستعانة بالمواد الناسفة، أو حتى بأدوات القطع الصلبة (ذلك لأن الأدوات المصنوعة من الحديد لم تستعمل إلا في مرحلة متأخرة نسبيًا من تاريخ مصر).

والواقع -وقد يبدو هذا الواقع بعيد التصديق- إن تلك الكتل الضخمة من الجرانيت وغيره من الصخور انتزعت من أماكنها الأصلية بضربها بكرات من الدلريت كانت تستعمل كمطارق، وفي بعض الأحايين كان العمال يستعملون أزاميل نحاسية لها دقماق، ولكن نظرًا لأن النحاس معدن لين، ونظرًا لأن المصريين لم يستطيعوا تقويته، فلا بد أن كميات هائلة من المعدن كانت تذهب هباء.

أما الطريقة التي استعملها قدماء المصريين لقطع كتل كبيرة من الجرانيت، فكانت فصل الكتلة الرئيسية أولًا بالطرق بكمرات أو مطارق مصنوعة من حجر صلب كالدلريت تمسك باليد، ثم استخدام الأسافين

بعد ذلك، إلى أن تفصل الكتلة المطلوبة عن أمها في النهاية، وكانت هذه الكتل تستعمل إما في البناء أو في صناعة التماثيل والأعمدة الضخمة.

وقد استخدم المصريون القدماء أنواعًا عديدة من الأحجار: الحجر الجيري، ويوجد في مناطق تمتد من القاهرة إلى ما وراء إسنا، وهو حجر صلب شبيه بالرخام، والحجر الرملي، والجرانيت بأنواعه وألوانه المتعددة، وهي الوردي والسنجابي والأسود، وكانوا يستخدمون أيضًا المرمر، وبالأخص من ماتنوب بالقرب من تل العمارنة. أما المحاجر الرئيسية فكانت محاجر البازلت، الذي كان يستعمل في رصف المعابد في المملكة القديمة، وكانت موجودة في الفيوم.

وكانت أسوان هي المصدر الرئيسي للحصول على الجرانيت اللازم لبناء الأهرامات، إلا أنه كان لا بد –قبل قطع هذه الكتل– من إجراء عمليات حسابية دقيقة معقدة؛ لتحديد حجم الأحجار المطلوبة، حتى لا تنقطع أحجار لا لزوم لها.

لكن كيف استطاع المصريون القدماء نقل هذه الكتل الحجرية الهائلة من المحاجر إلى مواضع البناء وتثبيتها في أماكنها بمثل هذه الدقة؟ لقد عالجت هذا الموضوع بالتفصيل في كتابي (فرعون المفقود)، ولهذا سألمح له هنا بإيجاز.

كانت الوسائل الميكانيكية الوحيدة التي أتيحت للعمال في عهد الفراعنة هي الرافعة والإسفين، ولكنهم لم يكونوا يعرفون البكرة، ومن ثم لم يكن من السهل رفع الكتل إلى أعلى ثم إنزالها برفق في أماكنها.

وكانت كتل الحجر تجر على زلاقات خشبية فوق الطريق الجسري المؤدي إلى الأهرامات، وكانت الطبقة الأولى توضع فوق الصخر البكر، وبعد تسوية هذه الطبقة يتهيأ العمال للمرحلة التالية، فيبنون مدرجًا يؤدي إلى قمة الجزء الأول من الهرم، ويجذبون الأحجار إلى هذه القمة، ثم يثبتونها في مكانها النهائي.

وأثناء العمل في هذه المرحلة يمضي العمال في مد المدرج إلى مسافة أبعد وإلى أعلى؛ نظرًا لأن زاوية الميل يجب أن تظل ثابتة، ويعتقد أن السبب في رفع طبقة الملاط الموجودة بين الكتل لم يكن الرغبة في تثبيت الكتل في أماكنها (لأن وزنها وحده يكفي لذلك)، وإنما لأنه لم تكن هناك طريقة أخرى يمكن أن تستخدم لدفع كتلة زنتها عدة أطنان وتثبيتها بجوار أختها، (إلا أن تسبح على فرش من الملاط المبلل اللزج)، وأظن أن هذا هو السبب في استعمال الملاط وما يلاحظ من نعومة أعالي الأحجار بشكل غير عادي، لا ريب أن المصريين القدماء استخدموا طرقًا مماثلة في بناء المعابد وأعمدتها وأروقتها.

كانت العملية كلها عملية تخطيط دقيق، واستخدام عدد قليل من المساعدات الميكانيكية البسيطة، وتوفير الأيدي العاملة بكثرة.

ولقد لعب النقل النهري دورًا رئيسيًا في جميع عمليات البناء التي أجراها المصريون القدماء؛ ولهذا كان من النادر أن ينقلوا حمولات ثقيلة على البر لمسافات طويلة، إذ إن النيل يحد البلاد بطولها كله.

ولقد رأينا أن القوارب لعبت دورًا هامًا جدًا في حياة الفراعنة، وكانت هذه القوارب تصنع في أحجام مختلفة، حتى لقد بلغ طول بعضها ١٧٢ قدمًا (في عصر الأسرة الثالثة)، وحمولته ٦٥٠ طنًا في بعض الأحايين، وكانت القوارب على أنواع مختلفة، فمنها القوارب الحربية وقوارب نقل الماشية وقوارب نقل السلع، واليخوت الخاصة.

وكانت هذه القوارب تصنع بدقة عظيمة؛ نظرًا لأنه لم تكن توجد في مصر أشجار تؤخذ منها ألواح الخشب العريضة؛ ولهذا كان النجارون يستخدمون الألواح الضيقة المأخوذة من الأشجار المصرية، وكانت أهم موارد الخشب المصري في ذلك الحين أشجار النبق والجميز والأرز والسرو، والأخيرتان منها استوردتا من الخارج قبل عام ٣٠٠٠ ق.م..

ولقد بلغ النجارون المصريون حدًا من البراعة في الصناعة تشهد به هذه القوارب وقطع الأثاث دقيقة الصنع، التي مضى عليها أكثر من ثلاثة آلاف عام، وما زالت محتفظة بمتانتها وكأنها صنعت منذ أيام.

***

أما صناعة النسيج فكانت من الصناعات الهامة طوال تاريخ مصر؛ ولهذا كانت تستخدم فيها مئات الألوف من الأيدي العاملة، وفي ذلك قال إيرمان:

"كان العمال يبذلون قصارى جهدهم لإعداد أجمل أنواع الكتان ناصع البياض، ومن المحقق أنهم استطاعوا بلوغ مرتبة الكمال في هذه الصناعة، ويكفي أن أدلل على ذلك بالإشارة إلى الثياب البيضاء التي كان عظماء المصريين يرتدونها، وبلغت من الرقة درجة جعلت في الإمكان رؤية أجزاء الجسم من تحتها، بل لقد أنتجوا أنواعًا من منسوجات الكتان بلغت شفافيتها ونعومتها درجة تعادل المنسوجات الحريرية التي نصنعها الآن".

إن القطن لم يكن معروفًا بالطبع في ذلك الحين، ولهذا كانت صناعة النسيج مقصورة على الكتان، وقد عرف المصريون زراعة الكتان منذ عهود مبكرة جدًا، وكانوا يغلونه في أوانٍ كبيرة جدًا، وجدت صورها في الرسوم المنقوشة على مقابر المملكة الوسطى للتخلص من القشرة الخارجية. وبعدئذ ينظفون الكتان ويفصلونه من النفايات قبل نسجه.

وكان المصريون القدماء بارعين أيضًا في علاج جلود الحيوانات، وكانوا يستعملون جلود الحيوانات الجميلة وبالأخص المنقطة في صناعة أغطية المقاعد والدروع والجعب، ويبدو أنه كان لجلد النمر قيمة خاصة.

لقد كان الأثرياء فقط هم الذين يستطيعون شراء ثياب الكتان الجميلة، أما الفقراء وعامة الشعب فكانوا يكتفون بصناعة ثيابهم من المنسوجات الخشنة أو جلود الحيوانات.

الفصل العاشر

الطب والسحر

مضت عدة شهور على زيارتنا الأولى لمنزل الوزير رخماير، وها نحن أولاء نعود إلى المنزل الكبير مرة أخرى، ولكن المنزل اليوم يختلف عن ذلك الجو الذي ما زالت ذكراه عالقة بأذهاننا، فنحن لا نسمع الآن نغمات الموسيقى التي كانت تنبعث من جناح الحريم، وإنما يخيم على المنزل صمت رهيب، فقد انصرف الخدم إلى أداء أعمالهم في هدوء. وها نحن أولاء نرى رخماير يروح ويغدو في الفناء مع زوجته، وقد ارتسمت على وجهيهما علامات الأسى؛ ذلك لأن نوفرت (ابنة الوزير الكبرى) مريضة بالحمى.

دعنا نتتبع الوالدين وهما يدخلان إلى مخدع ابنتهما، إن بالغرفة عددًا من أفراد الأسرة: تا–كا–ات، ومعها زوجها سنوحي (فقد تزوجا بعد أن رأيناهما آخر مرة)، وابن رخماير الأكبر منخفر–سونب وزوجته. وهم يقفون على مقربة من فراش ترقد فوقه نوفرت. إن وجه المريضة محتقن لامع مبلل بالعرق، وها هي ترفع يدها لتضعها على جبهتها ثم تتأوه. وبين كل حين وآخر يهتز جسمها النحيل بعنف وتغمغم: أشعر ببرودة، أشعر ببرودة!

وبالقرب منها وقف طبيب البلاط ومعه مساعدوه، ولكنه لا ينظر إلى نوفرت، وإنما يميل فوق منضدة صغيرة وضع فوقها حجاب وحبل معقود وأباريق صغيرة مملوءة بالعقاقير. وأخذ الطبيب يأتي حركات سحرية فوق الحجاب والحبل، وهو يردد إحدى التعاويذ بسرعة، بينما كان أحد مساعديه يرد عليه، وبعد قليل أخذ الطبيب الحجاب وثبته على رداء المريضة فوق القلب تمامًا، ثم ربط الحبل حول جبهتها. وبعد مزيد من حركات يديه فوق جسم المريضة. تقدم نحو أقارب الفتاة الصامتين وأومأ إليهم برأسه فتبعوه جميعًا إلى خارج، وتركوا وصيفة نوفرت للعناية بها، وقال الطبيب: سوف يخرج العفريت منها في مدى يوم وليلة، إذا كان آمون رحيمًا بها!

***

وعلى بعد خمسمائة ميل. وفي وادٍ صحراوي بالقرب من أورنتس. كان سنموت ضابط العربات الملكية راقدًا في إحدى الخيام وهو فاقد الوعي. فمنذ ساعات قليلة وبينما كان يقود حرس المؤخرة، وقع في كمين نصبه له العدو في ممر ضيق، إذ سد البدو الممر بكتل ضخمة من الصخر، ثم انقضوا على سنموت ورجاله، وكانوا يسيرون على هيئة طابور غير مستعد للقتال. ولما كانت العربات عاجزة عن المناورة، اضطر الجنود إلى النزول منها والاشتباك مع البدو في القتال وجهًا لوجه، وكانت معركة يائسة، أبلى كينامون فيها أحسن البلاء، وأبدى من ضروب الشجاعة والذكاء ما يجل عن الوصف.

عند بداية المعركة تنبه العدو لسنموت، وعرف رتبته من ثوبه وحامل علمه، فقرر أن يركز هجومه عليه، وقد أصيب وهو سائق عربته بعشرات السهام التي تطايرت عند هجوم العدو، كما قتل الجوادان وانقلبت العربة، ووجد سنموت نفسه محاطًا برماة العدو، بينما كان الدم الذي انبث من جروحه يكاد يعمي عينيه. وكان سنموت قد قتل بدويين قبل أن ينقض عليه ثالث ويضربه بهراوته ضربة عنيفة هشمت خوذته، وسقط سنموت كما سقط كينامون الذي كان قد رأى الكارثة تحلق فوق رأس صديقه، فشق طريقه إليه ومعه مجموعة من حملة الحراب. واستطاع أن يضرب البدو، إلا أنه –قبل أن يفعل ذلك– كان قد أرسل عددًا قليلًا من المحاربين الشجعان ومعهم بعض نافخي الأبواق؛ لإنذار كتلة الجيش الرئيسية.

واستطاع هؤلاء المحاربون الإفلات من الكمين، وسمع تحتمس صوت الأبواق من بعيد فأوفد مجموعة كبيرة من المشاة لنجدة فرقة العربات. وبعد معركة رهيبة هرب البدو تاركين خلفهم مائة قتيل، وبعدئذ نقل كينامون صديقه فاقد الشعور إلى خيمة كبير الأطباء، الذي بدأ يفحص المصاب، بينما وقف كينامون بجواره وعلى وجهه الملفوف بالضمادات علامات القلق، وبدأ الطبيب يجري جراحة على ضوء المصباح الزيتي.

لم يكن هناك سحر، فقد نظف الطبيب أولًا الجروح التي تخلفت عن السهام، وأوقف نزف الدم. ثم حاك اللحم الممزق بعناية، وبعد أن أعاد فحص المصاب تبين له أن ذراعه وساقه الأيمن مصابان بالشلل. ففحص

السحجات الموجودة بالجمجمة، وتأكد من عدم وجود كسر بها، ولكنه أدرك أن الشلل ناتج عن ضغط على المخ، وأن عليه أن يبادر بإزالة هذا الضغط.

وكانت أدوات الجراحة موضوعة على منضدة بجوار الفراش، مباضع ملتوية ذات أشكال مختلفة ومثاقب ومناشير، والتقط الطبيب منشارًا صغيرًا حادًا أزال به قطعة من الجمجمة، ثم قطع الغشاء فكشف عن المخ. وفي رفق شديد أزال الطبيب الدم المتجمد، ونظف الأنسجة المصابة، ثم حاك الغشاء كما كان وأعاد قطعة الجمجمة إلى مكانها وثبتها جيدًا بالأربطة ومجمع اللصق.

وعندما بدأت خيوط ضوء الفجر الأولى في الانبثاق نهض كبير الأطباء واقفًا، وكان صهيل الجياد وقرع الطبول ينبعث من بعيد، وتطلع كينامون إلى الطبيب وفي عينيه نظرة استفسار، فقال الطبيب: ليس في استطاعتي أن أبدي رأيًا قاطعًا الآن.

ووضع يده على صدر سنموت، ثم أردف: إن قلبه سليم، ومن الجائز أن يعيش، إلا أنه من المستحيل نقله قبل انقضاء وقت طويل، يجب أن يبقى هنا عدة أسابيع، وبعدئذ يمكن نقله إلى قاديش.

وابتسم الطبيب للشاب القلق مشجعًا، ووضع يده على كتفه وقال له: لا تقيق يا بني فإنه مثلكم جميعًا معشر الجنود يتمتع بجمجمة سميكة.

هل هذا خيال ووهم؟ كلا، لقد كان المصريون القدماء يجرون مثل هذه الجراحات الدقيقة، حتى قبل عصر الأسر. فقد عثر على عدد من الجماجم وبها علامات تدل على أنه أجريت لأصحابها جراحات (تربنة)، وكان المصابون يعيشون أحيانًا؛ لأن الكسور التأمت وتماسك العظم.

وكان الجراحون المصريون القدماء يجرون جراحات أخرى دقيقة مماثلة، كما جاء في لفافة بردي أدوين سميث عن الجراحة التي يرجع تاريخها إلى بداية المملكة الحديثة (سنة ١٥٠٠ ق.م.)، وتحتوي هذه اللفافة –وتعتبر أقدم كتاب طبي في العالم– على شرح لثمانٍ وأربعين حالة تتراوح بين إصابات في الجمجمة وإصابات في نهاية العمود الفقري، مرتبة بنظام دقيق للغاية. لا بد إذن أن لفافة البردي تلك كانت واحدًا من كتب الطب التي كانت تدرس في مدارس الطب المصرية، ومن المحقق أن تاريخها يرجع إلى ٥٠٠٠ سنة ماضية.

وهناك لفائف بردي طبية أخرى، كلفافة إيبرس التي تعالج الدمامل والقروح وما شابهها، ولفافة كاهون التي تعالج الحالات النسائية، ولفافة تشستر–بيتي التي يحتوي فصل منها على وصفات وعلاجات لأمراض الشرج والأست، ولفافة هيرستا التي تحتوي على ٢٥٠ تذكرة دواء أو فصول.

وهناك أيضًا لفائف بردي أخرى بالمتحف البريطاني وفي تورين، ويحتوي بعض هذه اللفائف على فصول تكاد تكون متشابهة تمامًا، ويبدو أنها نقلت جميعًا عن مصدر واحد يعتبر ثقة.

ما الذي يمكننا أن نفهمه من هذه اللفائف فيما يتعلق بمعرفة المصريين القدماء بجسم الإنسان؟ أولًا: إن إلمامهم بتشريح الجسم فاق إلمام أي شعب آخر قديم، ولعل ذلك راجع إلى عمليات تحنيط الجثث التي كانوا يمارسونها، فقد قال وارن دادسون عن ذلك في كتابه (الإرث المصري) ما يلي:

"لقد هيأت عادة تحنيط الجثث الفرصة لأول مرة لمشاهدات في التشريح المقارن؛ لأنها أتاحت لممارسي عملية التحنيط التعرف على وجوه التشابه بين أمعاء الإنسان وأمعاء الحيوانات، التي كانوا يعرفون كل شيء عنها من ذبح الحيوانات وشق بطونها سواء لأغراض الطعام أو للتضحية".

ومن الحقائق التي تستحق الذكر أن مختلف الرموز الهيروغليفية التي تمثل أجزاء من الجسم، وبالأخص الأعضاء الداخلية، هي في الواقع صور لأعضاء الحيوانات الثديية لا للمخلوقات البشرية.

وليس من شك في أن ذلك يدل على أن معرفة المصريين بتشريح الثدييات كانت أقدم من معرفتهم بتشريح الإنسان. ولا يقل عدد المصطلحات التشريحية في اللغة القديمة عن ٢٠٠ مصطلح، مما يدل على أن قدماء المصريين كانوا يستطيعون التعرف على مجموعة كبيرة مختلفة من

أعضاء الجسم وتمييزها بشكل لم يتيسر للشعوب الأقل معرفة، إلا أنه كانت هناك فراغات كثيرة في معرفتهم، ولكنهم عرفوا ما للقلب من أهمية؛ ولذلك قالوا: "إن بداية علم الطبيب هي أن يعرف حركة القلب، وأن هناك أوعية متصلة به لكل حركة من حركات الجسم".

ولكنهم لم يفطنوا إلى دورة الدم، وكانت لديهم كلمة واحدة للدلالة على العضلات والأوردة والشرايين، ولهذا كانت الكلمة التي استعملوها للدلالة على العضلات. وقد ظنوا أيضًا أن القلب هو منبع الذكاء والعواطف، ولم يعلقوا سوى أهمية ضئيلة على المخ، فيما عدا أنهم لاحظوا أن الضرر الذي يصيب المخ يؤثر على عضلات معينة في الجسم، ولقد بلغت أهمية القلب لديهم مرتبة جعلت المشتغلين بعملية التحنيط يعيدونه دائمًا إلى مكانه من الجسم قبل دفن الجثة، ولو أنهم كانوا يزيلون الأعضاء الأخرى ليحنطوها على حدة.

رب متسائل يقول: لماذا كان المصريون القدماء –الذين استخدموا الجراحة الدقيقة لعلاج الجروح– يلجؤون للسحر حينما تواجههم أمراض باطنية ليس لها سبب ظاهر؟

لماذا عالجوا الملاريا التي أصيبت بها نوفرت بالسحر، بينما عالجوا ارتجاج مخ سنموت بحكمة؟ ويلاحظ أيضًا أنه لم يكن هناك تمييز واضح بين الساحر والطبيب، فقد كان مركزهما واحدًا، فلو كانت إصابة سنموت

بالملاريا لطبق الطبيب عليه نفس العلاج الذي طبقه زميله في طيبة على نوفرت.

يبدو أن الإجابة هي أنهم كانوا ينسبون المرض لوجود أرواح شريرة بداخل جسم المريض كلما عجزوا عن العثور على سبب واضح للمرض، فكانت مهمة الطبيب حينئذ هي طرد الروح الشريرة سواء بالمناشدة أو بالتعزيم، أو باستعمال العقاقير التي كانت تنتقى أصلًا لخصائصها السحرية أكثر من انتقائها لخصائصها العلاجية. والواقع أن الطب نبع من السحر؛ ولهذا فإن من يقول أن السحر اختفى تمامًا من مهنة الطب يعتبر رجلًا جريئًا، إذ إننا نطلق الآن على الفكرة الأساسية في ذلك (الثقة بالطبيب).

وهكذا كان الطبيب يخاطب الروح الشريرة الموجودة بداخل جسم المريض أو يدعي أن المرض ناتج من حالة تسمم سببها الروح الشريرة التي سكنت جسم المريض، فإذا تبين أن التعاويذ معدومة الجدوى، لجأ الطبيب إلى تدبير يثير الاشمئزاز؛ لإرغام الروح الشريرة على ترك جسم المريض، وذلك هو إرغام المريض على ابتلاع حشرات مسحوقة (أو حية)، وروث البهائم، أو أنواع أخرى كريهة من المستحضرات الحيوانية أو النباتية.

ولقد نقلت الكتب الطبية التي وضعها الإغريق أو الرومان أو العرب هذه الوصفات المصرية القديمة إلى أوربا، فظهرت في شكل وصفات سحرية قدمها الساحرون في العصور الوسطى وما بعدها، بل أن بعضها ما زال موجودًا حتى اليوم في شكل بدع شعبية.

ما هي الأمراض التي كانت متفشية في مصر القديمة؟ إننا نستطيع الحصول على كثير من المعلومات عن هذه الأمراض من الرسوم والنقوش الموجودة على جدران المقابر ومن فحص الموميات، ولقد تعرف الأطباء على خالات من شلل الأطفال، ومرض بونس، والكساح. وكان الرمد الحبيبي والرمد الصديدي متفشيين في مصر القديمة تفشيهما في مصر الحديثة، وكذلك البلهارسيا وأمراض الأسنان.

وكان بمصر القديمة أطباء لأمراض العيون وأخصائيون في أمراض الأمعاء والأمراض الباطنية، وقد وجدت في لفافات البردي الطبية وصفات لعلاج أمراض الرئتين والكبد والمعدة والمثانة ومختلف أمراض الرأس وفروتها ومن بينها وصفات لمنع تساقط الشعر ومنع الشيب، وهناك وصفات للروماتزم والتهاب الشرايين وأمراض النساء.

لقد أخذنا عن الطب المصري القديم أول تجارب في التشريح والجراحة والصيدلة، وكيفية استعمال الجبائر والضمادات والمكمدات. وهناك مواد طبية استخدمها المصريون القدماء في العلاج، وما زالت تستعمل حتى يومنا هذا في المجال الطبي، كالسنط والأينسون والشعير والخروع وزيته.. إلخ. ومن بين الشحوم الحيوانية الدم والعظم والمرارة والكبد والطحال.

من الواضح أن هذه المواد التي أثبتت –بمرور آلاف السنين– نجاحها الكبير في علاج أنواع معينة من الأمراض ستوصف دائمًا لهذه الأمراض، ومن ذلك تبين أن الطب العلمي استمد تدريجيًا من السحر.

الفصل الحادي عشر

البيع والشراء

كان شخصان يسيران بعد ظهر أحد الأيام في طريق طويل، مملوء بالتراب ومزدحم بالناس ووجهتهما ميناء طيبة، وكان أحدهما رجلًا نوبيًا طويل القامة، عريض المنكبين، يمسك بيد غلام صغير، تبدو على وجهه علامات الانفعال.

وراح الغلام يشير بلهفة ذات اليمين وذات اليسار، وهو يجذب النوبي ويحثه على التريث، بعد أن رأى رجلًا ومعه قرد يؤدي بعض الحركات الغريبة في أحد الأماكن، بينما راحت فتاة ترقص في مكان آخر، وقد أحاطت بها حلقة من رجال يصفقون وهم جالسون القرفصاء على الأرض.

وكانت هناك مناظر أخرى كثيرة استأثرت باهتمام الغلام، ولكن رفيقه طويل القامة كان يسير في طريقه بعناد وبغير أن يلتفت يمينًا أو يسارًا؛ لأنه لم يكن يجرؤ على مطاوعة الغلام.

كان هذا الغلام هو بر–هور ابن الوزير رخماير، أما رفيقه فكان بواب المنزل، وهو خادم أمين طلب منه مولاه الوزير مقابلة الغلام عند باب المدرسة ومرافقته إلى المنزل، ولكن الغلام أقنع النوبي بالذهاب معه إلى السوق للتفرج عليه.

وعندما وصلا إلى المرسى، وقفا لمشاهدة سفينتين كبيرتين محملتين بالقمح، وصلتا من الشمال منذ عدة ساعات، وكان العمال منهمكين في تفريغهما، بينما جلس الكتبة يراقبون عملية التفريغ ويسجلون عدد الأجولة، وكان المفروض أن يذهب هذا القمح إلى مخازن معبد آمون، ولكن الواقع أن ملاحي السفينة سيحصلون منه على ما يوازي أجورهم، ولهذا كان بعضهم يتناقش في تلك اللحظة مع الباعة، الذين كانوا يجلسون القرفصاء على رصيف الميناء وأمامهم سلالهم وأباريقهم؛ ذلك لأن البيع والشراء كانا يجريان في ذلك العهد بطريقة المقايضة.

وجذب بر–هو مرشده وسط الجمع، واندفع في هذا الاتجاه مرة، ثم في ذاك مرة أخرى، فمر بأحد باعة السمك وكانت تجلس أمامه امرأة راحت تجادله في السعر، وبالقرب منه جلس تاجر دهانات، بينما راح بائع آخر يعرض كعكًا أبيض للبيع، وكان رجل يحاول أن يحصل على عدد من الكعك مقابل ياقة، ولكن البائع رفض العرض، فقال له الرجل: إذن خذ هذا (الصندل) أيضًا. وقبل البائع، وبذلك أبرمت الصفقة.

وكان الملاحون سمر الوجوه يقفون فوق سفنهم، ويتفرجون على ما يجري عند رصيف الميناء، ويلقون بكميات من البلح لفتيات واقفات على الرصيف.

لم يكن بين هذا العدد الكبير من البائعين والمشترين واحد يحصل على أجور أو مرتبات مالية؛ لأن جميع المدفوعات والصفقات كانت تجرى

بطريقة المقايضة، حتى عظماء رجال الدولة كانوا يستخدمون نفس الطريقة في معاملاتهم. وكان كبار الموظفين يحصلون على دخلهم الكبير في الضياع التي يملكونها أو التي يديرونها نيابة عن الملك، الذي كان المالك الأكبر في الدولة.

ومع أن هذه الطريقة قد يبدو لنا أنها بدائية، إلا أنها لم تضايق قدماء المصريين أو تسبب لهم أي ارتباك في المعاملات؛ ولهذا كانوا يقيمون الأسواق ويدفعون المرتبات ويقرضون بالربح (الفائدة) ويجبون الضرائب بغير أن تتبادل أيديهم أية نقود، ومن الناحية الأخرى، كانت قيم السلع تقاس بمعيار مشترك ذي قيمة ثابتة.

ففي عصر المملكة الحديثة كان أحد هذه المعايير لولبًا من سلك نحاسي اسمه (يوتن)، وقد توطدت قيمة هذا المعيار بحيث أصبح اللولب هو الرمز الهيروغليفي الدال على اليوتن، إلا أن ذلك لا يعني أن اللولب النحاسية كانت متداولة في الأسواق وإن كانت قد استعملت أحيانًا لحسم الخلافات البسيطة في تقدير القيم. وقد وضعت سلطات الضرائب قائمة حددت فيها قيم مختلف السلع باليوتن، وأعطتها لخادم معبد آمون للاسترشاد بها في تقدير قيم الجزية. وكانت هناك وحدة مصرية أخرى لتقدير القيم هي (دبن) ومعناها الأصلي (حلقة)، إلا أنه تبين بعد انقضاء فترة من الزمن أن الغرض من هذا المعيار هو تعيين أو تحديد وزن السلعة.

كانت التجارة الداخلية ضيقة النطاق في مصر القديمة، أما سبب ذلك فبسيط؛ ذلك أن كل مديرية كانت تكفي نفسها بنفسها، ففي كل ضيعة ملكية أو كهنوتية غزالها وصناعها وتجارها، وغيرهم من الصناع. وكان الفلاحون ينتجون الطعام الذي يأكلونه؛ ولهذا لم تكن هناك ثمة حاجة إلى وجود التجار بالمعنى الذي نفهمه من هذه الكلمة.

وكان الاستثناء الوحيد من هذه القاعدة هو ميدان التجارة الخارجية، ففي أوقات مختلفة نشطت تجارة مصر الخارجية مع جاراتها كالنوبة وسوريا وليبيا، ومع البلاد التي خضعت للحكم المصري، وفي أوقات أخرى نشطت التجارة الخارجية مع جزر إيجان ودولة بانت (الصومال)، وهما من الدول النائية التي كان من المستحيل غزوها.

ترجع معرفة المصريين بالنوبة (السودان حاليًا) إلى عصر المملكة القديمة وربما قبلها، فمن حين لآخر كان المصريون القدماء يغزون هذه البلاد ويرغمون أهلها على دفع الجزية. وقد بلغ نشاط ملوك الأسرة الثامنة عشرة بصفة خاصة أشده في هذه، ومن النوبة جاء الأبنوس والعاج والأحجار الكريمة، وريش النعام (لصناعة المراوح) وبيض النعام، والقردة والأسود والزراف، تلك كانت الغنائم الرئيسية، وكانت تذهب إلى مخازن فرعون أو كهنة آمون.

أما بالنسبة للدول الأخرى، فمن الواضح أنه كان بينها وبين مصر تبادل تجاري، فكانت هناك مثلًا (أرض بانت) المجهولة التي لم يكن أحد

متأكدًا تمامًا من موقعها، وإن كان بعض الكتاب قد قالوا إنها موجودة على ساحل الهند الغربي، إلا إن الرأي الذي صادف قبولًا عامًا هو أنها موجودة على ساحل إفريقيا جنوب البحر الأحمر، في المنطقة التي يشغلها الصومال حاليًا.

يوجد في دير البلح الذي أنشئ في عهد المملكة العظيمة حتشبسوت رسم مشهور، يبين بتفصيل مذهل حملة أعدت لغزو (بانت) بتوجيه من الملكة، وقد وصف إيرمان هذا الرسم بدقة فقال:

"في ميناء على البحر الأحمر احتشد الأسطول، الذي تقرر أن يذهب به جنود صاحبة الجلالة إلى تلك البلاد النائية، وكان طول كل سفينة في هذا الأسطول ٦٥ قدمًا، ويتولى تسييرها ثلاثون ملاحًا، ولها أشرعة هائلة تبرز على جانبيها كجناحين كبيرين. وكانت أوعية المؤن الضخمة تنقل إلى السفن، بينما نحرت ذبيحة للإلهة (هاتور إلهة بانت) لكي ترسل ريحًا رخاء، ثم نشرت الأشرعة واستقل الملاحون السفن وتهيؤوا للرحيل، فغطسوا مجاديفهم الطويلة في الماء وبدأت السفن تتحرك فوق صفحة الماء، وبذلك بدأت الرحلة الجميلة إلى الأرض المقدسة (بانت)".

وإلى جانب هذا الرسم يوجد رسم آخر يبين وصول الأسطول إلى بانت، وقد رسم الفنان الذي رافق هذه الحملة منظر أكواخ بدائية حقيرة مشيدة على أعمدة قصيرة وسط النباتات الاستوائية الكثيفة، مما أثار سخط المصريين المتمدينين واشمئزازهم.

وكان رجال بانت يرتدون قمصانًا قصيرة، ولهم لحى مدببة وجدائل شعر على النمط الذي رسمت به صورهم في عهد خوفو، أي منذ أكثر من ألف عام، وعندما هبط المصريون إلى البر، أخذ رجال بانت يتقدمون نحوهم في خضوع، وعلى رأسهم زعيمهم الذي كانت زوجته متناهية البدانة، تعاني من مرض الفيل.

وبدأت عملية التجارة، كان المصريون يجيئون ويذهبون سراعًا على مهابط السفن، وهم يحملون العاج والأبنوس والذهب الأبيض في بلاد آمون، والأخشاب المعطرة وجميع أنواع صبغات العيون، والكلاب والقردة والأرقاء وأولادهم، وأشياء أخرى لم يسبق إن قدمت لملك منذ بداية الزمن.

وكان البخور أهم سلعة اشتهرت بانت بإنتاجها، ومن ثم فإن المصريين لم يأخذوا معهم أكداسًا منه فحسب، وإنما أخذوا معهم أيضًا عددًا من أشجاره لإعادة زراعتها في مصر، فماذا أخذ أهالي (بانت) في مقابل ذلك؟

وضع المصريون منضدة كبيرة على الشاطئ، وأحاط الأهالي بها وراحوا يتأملون السلع التي جلبها الأجانب معهم: عقود بهجة وخناجر وفؤوس للقتال، خبز وجعة ونبيذ وفاكهة، وجميع السلع المصرية، ولكنها كانت تبدو في مجموعها أقل قيمة من السلع التي أخذت مقابلها.

قلنا إنه كانت هناك علاقات تجارية بين المصريين وكريت وجزر البحر الأعظم وسوريا؛ ولهذا كان صانعوا الأسلحة يسافرون إلى هذه الدول لبيع مصنوعاتهم.

ومن السلع التي كانت مصر تستوردها من سوريا بطريقة المقايضة: القمح، مقابل السفن والعربات والأسلحة والآلات الموسيقية، والخمور والجياد والثيران والبقر والماشية الأخرى، إلا أنه كان من النادر أن يصل شيء من هذه السلع إلى عامة الشعب، إذ كان معظمه يذهب إلى مخازن الملك والآلهة. ونظرًا لأن العمال المصريين لم يكونوا يملكون أية وسيلة لشراء الطعام، فإنهم كانوا يعتمدون اعتمادًا كليًا على سادتهم في الحصول على الكفاف.

وكان الجميع –من السادة العظماء إلى أدنى الطبقات– يدفعون ضرائب باهظة، ولعل بعضهم يتساءل كيف كانت الضرائب تجبى من الناس برغم عدم وجود نظام للنقد؟

والواقع أن طريقة جباية الضرائب من الفلاحين والمزارعين كانت سهلة نسبيًا، كان عليهم أن يقدموا للدولة حصة من المحاصيل التي تغلها أراضيهم وحصة معينة من ماشيتهم والثياب التي تغزلها نساؤهم وبناتهم، لكن كيف كان الكتبة والموظفون يقدرون الضرائب؟

كان الموظف الكبير يدين بسلطته وثرائه للملك، أي الدولة. ففي مقابل خدماته تقديرًا وتكريمًا له، كان الموظف الكبير يحصل على فيلا

جميلة، وعربة أنيقة، وقارب فاخر، وعدد كبير من الزنوج وغيرهم من الأرقاء إلى جانب الماشية والأطعمة والخمور والثياب.

وكانت هذه الممتلكات تسجل باسم الموظف، ومن ثم كان رجل تقدير الضرائب يقدر الضرائب على ثروة مثل هذا الموظف بما فيها من الهبات. أما عامة الشعب فكان تقدير الضرائب عليها جزافيًا، ولهذا عمت الشكوى وكثر الإجحاف ولكن بدون جدوى.

الفصل الثاني عشر

فرعون مصر

كانت جماعة من الفتيات الصغيرات يقفن في بهو معمد معتم، وكانت شعورهن السوداء المستعارة المجعدة تتدلى فوق أكتافهن العارية، بينما تدلت ثيابهن شبه الشفافة المصنوعة من الكتان المقوى إلى أصابع أقدامهن تقريبًا.

وكانت أظفار أصابع أيديهن وأقدامهن مصبوغة بالحناء، وقد حملن في أيديهن الجميلة الـ(سايسترا)، وهي عبارة عن أقراص معدنية معلقة في مقبض من الخشب، فإذا هزت أحدثت ضوضاء عالية غير سارة، وكانت هؤلاء الفتيات كاهنات معبد آمون–رع، وعلى رأسهن زعيمتهن نوفرت التي أبلت من مرضها.

كانت ابنة الوزير مسرورة؛ لأنها شفيت في وقت يمكنها من الاشتراك في هذه المناسبة السعيدة، فقد كانت طيبة تحتفل بعودة تحتمس الثالث (منخفر) ملك الجنوب والشمال وحبيب آمون ظافرًا بعد غزواته الأخيرة.

فبالأمس راقبت نوفرت جيش فرعون الظافر وهو يدخل طيبة، وها هي اليوم تنتظر بداخل معبد آمون مع غيرها من الكاهنات، ليغنين ويرقصن أمام فرعون عند مجيئه إلى المعبد لتقديم الذبائح والقرابين.

وفي الفناء الخارجي المكشوف وقف الكهنة على اختلاف مراتبهم بأرديتهم البيضاء في انتظار وصول فرعون. كان هذا هو الفناء الداخلي المؤدي إلى البهو المعمد الذي يوجد خلف هيكل الإله، ولم يكن يسمح لغير الكهنة بدخول هذا الهيكل، وإن كانت هناك ساحات أخرى تحيط بها أعمدة وتماثيل هائلة. وكانت هذه الساحات مكتظة بأفراد الشعب من مختلف الطبقات، ومن بينهم ضباط الجيش ورجاله، وقد ترك ممر عريض في قلب الساحة الرئيسية ليدخل الملك ومرافقوه منه إلى المعبد.

وفي الخارج، وقفت صفوف من جنود الجيش المصري، بوجوههم السمراء وحرابهم ودروعهم وخوذاتهم المدببة، ومن خلف هذه الصفوف وقفت جماهير الشعب التي كانت تتكلم بأصوات تصم الآذان.

وفجأة ارتفعت صيحة هائلة، فتلفت الجميع ناحية النهر، فرأوا موكب الملك النهري مقبلًا يتهادى على صفحة الماء، وكان الموكب مؤلفًا من عدد من القوارب الكبيرة المكتظة بموظفي البلاط والحرس الملكي والشرطة النهرية.

ولا عجب فإن منخفر –الغازي الأكبر– والبطل الذي يرهبه جميع أعداء مصر، قادم مرة أخرى ليقدم الذبائح لأبيه آمون، ومعه غنائم حربية كثيرة سيهبها لملك الآلهة.

كان هذا هو العام الثاني والأربعين من حكم تحتمس الثالث، وقد قام فرعون بسبع عشرة غزوة خلال هذه الفترة من حكمه، وكان يعود منها

جميعًا منتصرًا، حتى لقد أصبحت الدول من النوبة جنوبًا إلى الفرات شرقًا تدين بالولاء لفرعون، بينما كانت فرائص ملوك الدول الأخرى المجاورة ترتعد منه.

وفي الساحة الداخلية كف كبار الموظفين عن التهامس ووقفوا صامتين، وراح رخماير يعبث بدملج (حلية) ذهبي صغير حول ذراعه، بينما ثبت القائد أمنمحاب خوذته فوق رأسه، ودفعت نوفرت خصلات شعرها المستعار إلى الوراء، ومن بعيد ارتفعت أصوات الأبواق مختلطة بزئير الجماهير التي كانت تردد: "الحياة! الرخاء! الصحة!.. الحياة! الرخاء! الصحة!".

وتطلعت عيون الكهنة إلى البوابات البرونزية الكبيرة، وسمعوا وقع أقدام، وصوت حوافر جياد، وقرقعة عجلات مركبات، فأدركوا أن الموكب يدخل إلى الساحة الخارجية، حيث احتشد الألوف راكعين أمام فرعون، وردد الفضاء عبارات: (الحياة! الرخاء! الصحة!.. الحياة! الرخاء! الصحة!).

وسقطت الظلال على الأرض من البوابات البرونزية، كان الموكب يدخل المعبد، فجاء الكهنة بأثوابهم البيضاء أولًا، وبعدهم جاء ضباط الحرس الملكي وهم يسيرون الهوينا، وقد بدت على وجوههم علامات الصرامة، وتلاهم حملة المراوح بمراوحهم الكبيرة المصنوعة من ريش النعام،

ومن ورائهم محفة محلاة بالنقوش الذهبية، يحملها اثنا عشر نبيلًا، وجلس فوقها فرعون.

وفي التو سجد الجميع فيما عدا الكهنة وكبار الموظفين، وهنا تقدمت الكاهنات النحيلات ببطء، وعلى رأسهن نوفرت، وهن يحركن الـ(سايسترا) ذات اليمين وذات الشمال ويرددن:

كم هو جليل ذلك الذي عاد منتصرًا

لأن آمون جعله ينكل بأمراء فلسطين.

فرد عليهن الكهنة بصوت عميق قائلين:

إن الشعب كله، وشعب منزل آمون في عيد

لأن آمون–رع يحب الملك.

كان تحتمس الثالث رجلًا ضئيل الجسم ذا وجه مليء، لا يدل على أية عبقرية عسكرية، وكان حينذاك قد جاوز السبعين من عمره، ولكن حياة الحرب والقتال أكسبته خشونة وصلابة عود، وكانت ذراعاه العاريتان اللتان نفحتهما أشعة الشمس مفتولتين، كما كانت هيئته كهيئة الشباب، وكان يرتدي تاجًا طويلًا مزدوجًا، يرمز إلى ذلك الاتحاد الذي تم بين مصر العليا ومصر السفلى منذ ١٥٠٠ سنة، وكان يحمل في كلتا يديه رموزًا أخرى، ويرتدي ثوبًا من الكتان الأبيض المقوى ونعلًا ذهبيًا.

***

كانت وظيفة فرعون دينية أساسًا، إذ كان هو الملك الكاهن، أي أنه كان الواسطة بين الشعب وبين القوى غير المنظورة التي تتحكم في مصائر الناس، كما أنه كان يمثل الشعب بمعنى أكثر عمقًا، مما يستدل من المفهوم العصري للكلمة، فإن صحة الشعب وحيويته كانت تتجسد في الملك. ولهذا فمنذ آلاف السنين قبل ذلك العهد، أي عندما بدأت الحضارة تزدهر في وادي النيل، كان الملك يحكم الشعب طالما كانت قواه متكاملة، فإذا تدهورت قواه ودب فيها الوهن جاز للشعب أن يضحي به، وكانت هذه العادة منتشرة أيضًا بين شعوب بدائية أخرى، إلا أن هذه العادة ما لبثت أن أهملت بمرور الزمن.

لم يكن الملك بشرًا بالنسبة للمصريين القدماء، ولكنه كان إلهًا، ابن آمون–رع نفسه؛ ولهذا فإنهم كانوا يعتقدون أن الملك لا يموت، ولكنه ينضم إلى أبيه آمون، أي أنه (ينطلق إلى أفقه)، فهل كان الفراعنة أنفسهم يصدقون إنهم أبناء آلهة؟

أعتقد أنهم كانوا يؤمنون بذلك؛ إذ يكفي أن يفكر المرء في تأثير السلطة المطلقة التي كان الفراعنة يتمتعون بها، وما يحيط بهم من هالة دينية قوية، ليؤمن بأن هذا كله كان كفيلًا بأن يجعل الفراعنة يعتقدون أنهم آلهة وأبناء آلهة.

كان الملك محاطًا بالطقوس والرموز الدينية؛ ولهذا كانت كل ساعة من حياته محددة لأداء عمل معين من الأعمال الكثيرة التي يتطلبها منصبه السامي، بحيث لا يترك له مجال يذكر للمتعة.

فكان إذا استيقظ من النوم في الصباح اطلع على الرسائل التي وردت، ومن المحتمل أن يملي ردًا على بعضها، وبعد ذلك يشترك مع الكاهن الكبير وبعض أفراد الحاشية في العبادة وتقديم بعض القرابين. ويقال إن طعام الملوك كان بسيطًا ومحددًا، مما يدل على أنهم كانوا خاضعين لنظام تغذية يكفل المحافظة على صحتهم من أجل رفاهية شعبهم.

وعندما كانت تجرى محاكمات تمس بعض أفراد الأسرة المالكة، فإن هذه المحاكمات كانت تأخذ الطابع القانوني المحدد بغير أن يحضرها الملك.

والواقع أن فرعون كان يتمتع بسلطة أقل من تلك التي كان الإمبراطور كلودياس أو الملك هنري الثامن يتمتعان بها، كما أن مسؤولياته لم تكن تنتهي بموت رعاياه، فكما كان يمنحهم الأرض في الحياة، كان يوقف الأرض أيضًا للإنفاق على مقابرهم بعد موتهم؛ حتى يمكنهم أن يعيشوا في الحياة الأخرى.

***

لنعد إلى زيارة تحتمس الثالث للمعبد، دخل حاملو المحفة إلى الهيكل المعتم، حيث كان على فرعون -باعتباره الكاهن الأعظم- أن يؤدي الطقوس المقدسة أمام آمون.

ها هو ذا فرعون يقدم الذبائح لتمثال آمون الذهبي في أقدس بقعة بالمعبد، إن اثنين من الكهنة يرتدي أحدهما قناع هوراس الشبيه بالصقر، ويرتدي الآخر قناع توت الشبيه بإبيس إله الحكمة، يعاونان فرعون في فتح باب الهيكل المقدس، وإطلاق البخور أمام التمثال الذهبي، ورشه بالماء المأخوذ من البحيرة المقدسة، وتقديم تاجه وشعاره له، ووضع الأطعمة أمامه. وكان الضوء الوحيد الموجود في الهيكل صادرًا من فتحة في سقف الهيكل، بينما كان صوت ترتيل الكهنة يسمع خافتًا من بعيد، فيضفي رهبة على جو الهيكل.

وفي تلك الأثناء كانت صفوف طويلة متراصة من قوات الجيش تسير في شوارع طيبة في طريقها إلى المعبد، وكانت هتافات الجماهير تشق عنان السماء كلما وقعت عيونها على عربات الغنائم التي تجرها الثيران، تتبعها طوابير من الحمير المحملة بالصناديق المملوءة بالذهب والفضة والأحجار الكريمة وأجولة البخور.. إلخ.

وجاء بعد ذلك قطيع كبير من الماشية والثيران والغزلان، ثم مئات من الأرقاء رجالًا ونساء يحرسهم الجنود. أما كبار الأسرى فلم يكونوا في هذا الموكب، فإن سبعة أو ثمانية من ملوك وأمراء الدول المهزومة كانوا يجلسون

في الانتظار بغرفة مجاورة للمعبد، وقد لطخت ثيابهم بالدماء وتمزقت، وأوثقت أيديهم خلف ظهورهم، وتولى حراستهم جنود مصريون أشداء، إذ كان المقرر أن يقدم هؤلاء الأسرى ذبائح لآمون جريًا على عادة قديمة العهد.

وتوقف الموكب وأخذ الضباط يصدرون الأوامر لتنظيم رجالهم، وهكذا استعد الجميع للحظة خروج فرعون من المعبد ليركب محفته ويتصدر جيشه الظافر.

وكانت إحدى فرق العربات تقف وقتئذ بالقرب من مدخل المعبد، بعد أن تقرر أن تحظى بهذا التكريم لما أبدته من بلاء حسن أثناء المعركة، وفي إحدى عربات هذه الغرفة وقف شابان هما سنموت وكينامون.

كان سنموت قد شفي من جراحه، ولكنه أصيب بالفالج وبالتواء في أحد جانبي وجهه، فراح يفكر بمرارة في انتهاء مستقبله كمحارب. أما كينامون فكان يشعر بسعادة غامرة؛ لأنه خاض معركة رهيبة واستطاع أن يظهر نبوغه فاستحق الترقي، ولكنه كان يشعر بأسى عميق من أجل صديقه.

قال سنموت متبرمًا: لكم أتمنى أن ينتهي الحفل سريعًا! فقال كينامون: إنها لحظة الغداء. فغمغم سنموت، وقد اختلجت عضلات وجهه وبدت عليه علامات الحنق: تلك عادة همجية. فقاطعه كينامون ببرود: ولكنها عادة كما تعلم. فانثنى سنموت إليه وقال: إنك تتكلم كأبيك، إنها

السعادة. إنها السعادة دائمًا في مصر، هكذا فعل أبوك وهكذا يجب أن تفعل أنت.

– ولكن هذا هو ما كان الأسيويون سيفعلونه بنا لو أسرونا!

فتنهد كينامون، ثم قال: يبدو أنك لا تحب مصر! فأجاب صديقه: إنك مخطئ، فأنا أحب مصر، لكن هل معنى ذلك أن أوافق على كل ما يجري هنا؟ ليس جميع الأجانب يضحون بالنبلاء الأسرى، إن أهالي كفتوي لا يفعلون.

– بل يفعلون يا سنموت، لقد قال لي بيبيس إنهم يضحون بالأسرى لإلههم، وهو تور.

– إذن فإن بيبيس أحمق، ولعله يعني الوثب على الثور وهو أمر مختلف تمامًا.

– الوثب على الثور؟ ماذا تعني؟

– نعم. إن الكفتويين يدربون أسراهم على منازلة الثور في الحلبة، وعلى الأسرى أن يثبوا على قرني الثور، فإذا كانوا شجعانًا أذكياء استطاعوا الإفلات من الموت، وأظن أن ذلك يختلف تمامًا عن تهشيم رأس الأسير بهراوة.

وفي تلك اللحظة انبعث زئير مخيف من ناحية المعبد، وسرت عدواه إلى الجماهير المتجمهرة في جميع أرجاء المدينة، وهكذا رددت المدينة زمجرة شبيهة بقصف الرعد، وانتفض سنموت، وقال: لقد انتهى كل شيء، أظن إننا نستطيع السير الآن.

وفي بهو الأعمدة تمددت جثث الأسرى المقتولين في بركة من الدم، وهزت نوفرت وزميلاتها الكاهنات الـ(سايسترا) وبدأن في ترديد أنشودة معركة آمون.

وحمل الملك على محفته ببطء، وسجدت الجماهير أمامه إلى أن استقل عربته وتصدر قواته المنتصرة.

وهز سنموت رأسه وقال: لكم أود الرحيل إلى بلاد مثل كفتوي!

الفصل الثالث عشر

منزل الأبدية

أقبل الخريف ومعه الفيضان، فهناك، بعيدًا جدًا إلى الجنوب، بدأت مياه النيل الأزرق التي غذتها الأمطار في الاندفاع إلى المجرى الرئيسي، حاملة معها ثروة كبيرة من طمي جبال الحبشة. ولكن المصريين القدماء لم يسمعوا مطلقًا عن الحبشة ولا عن النيل الأزرق؛ لأن العالم كان ينتهي في نظرهم جنوب النوبة. أما الفيضان، واهب الحياة والمعجزة السنوية، فكان هدية من رع. وفي طيبة وعلى طول النهر الملتوي كالأفعى، كان الكهنة يدرسون (مقاييس النيل)، ويقارنون مستويات ارتفاع ماء النهر بما كان عليه في الأعوام السابقة، فعلى صدى قراراتهم كان الكهنة يقدرون المحاصيل المرتقبة ومقدار الضرائب التي يمكن فرضها.

لقد بدأ النهر في الارتفاع منذ ثلاثة أشهر، أي في شهر أغسطس، فاحتفل المصريون بوفاء النيل، في الشهر الماضي أي في شهر سبتمبر، كان الفيضان قد بلغ ذروته. أما الآن في شهر أكتوبر وفي مدى أسابيع قليلة، فسيبدأ النهر في الانخفاض، ويبدأ الفلاحون في نثر البذور في شهر نوفمبر.

إن صمتًا عجيبًا يخيم على المدينة الملكية، فمنذ شهور قليلة كانت هناك حقول خضراء تمتد إلى سفوح التلال الجيرية، ولكنها تحولت الآن إل ما يشبه البحيرة، فأنت تستطيع أن تركب قاربًا من المرسى الموجود على

الشاطئ الشرقي للنيل، وتنزل على مسافة قصيرة من مدينة الموتى على الشاطئ الغربي.

ومع أن فلاحين كثيرين أصبحوا عاطلين، فإن البعض جند للعمل في الآثار، وكانت هناك سفن كبيرة تصل من أسوان وهي محملة بكتل الجرانيت، بينما كانت أعمال الإنشاء والتوسع تجري في معبد الكرنك.

إننا الآن في الصباح المبكر، والسفن تمخر عباب الماء بلا توقف، وأشرعتها تلقي ظلالها في اتجاه الشاطئ الغربي الصخري. وفي قارب أنيق جلس الوزير رخماير وزوجته مريت، إنهما ذاهبان لزيارة مقبرة رخماير (منزل الأبدية) الذي يجري نحته في الشاطئ الصخري الغربي استعدادًا لموت الوزير.

ولم يكن في ذلك شيء غير عادي؛ لأن أصحاب المناصب الكبرى كانوا ينفقون وقتًا كثيرًا ويبذلون عناية كبيرة في إعداد منازلهم الأبدية، مثلما يفعلون في العناية بمنازلهم الأرضية؛ وذلك لإيمانهم بأن الحياة قصيرة والموت طويل، ولهذا كانوا يعنون أشد العناية بإعداد (منازلهم الأبدية) التي ستسكنها الروح.

وتختلف هذه المقابر من ناحية الحجم تبعًا لثراء وأهمية صاحبها، إلا أنها تشترك جميعًا في صفات معينة، فهناك فجوة عميقة تؤدي إلى غرفة الدفن محكمة الإغلاق التي توضع فيها الجثة المحنطة، وهناك غرفة تحتوي

على تماثيل الميت وزوجته وتوضع عادة في مواجهة غرفة الذبائح أو (الكنيسة)، التي يقدم أقارب الميت الطعام لروحه فيها.

أما الغرض من التمثال –الذي يمثل الميت تمامًا كما لو كان في حياته– فهو أن تسكنه الروح بعد مغادرتها الجسد، وتغطي جدران هذه الغرف رسوم ونقوش كتلك التي وصفناها في الفصول السابقة، والتي تصور الأعمال التي كان الميت يؤديها أثناء حياته، والتي يتمنى أن تستمر في حياته الثانية.

وعلى الجدران أيضًا كتابات مقدسة لمساعدة الميت عندما يقف في غرفة حساب أوزوريس، ورسوم تمثل القرابين التي يقدمها أقاربه، وهي القرابين التي يمكن أن تتحول –بطريقة سحرية– إلى أطعمة حقيقة، إذا لم يؤدِ أحفاد الميت واجبهم ويقدموا الأطعمة لروحه.

ووصل القارب إلى نقطة عند الشاطئ صالحة لنزول الوزير و زوجته، فنزلا إلى البر، وساعدهما الخدم بأن حملوهما على مقعدين مريحين وارتقوا بهما المنحدر المواجه للشاطئ. وفي طريقهما إلى المقبرة، مر الوزير وزوجته بشوارع المدينة التي يسكنها المشتغلون بتحنيط الجثث وصانعو التوابيت، والحفارون والرسامون وصانعو الأثاث، والكهنة الذين يلزمهم واجبهم بتقديم القرابين في المقابر.

وتأمل الوزير قمرة من تلك التي تحفظ الجثث فيها، وكانت رائحة النطرون النفاذة تتصاعد من حمامات النطرون التي تغرق الجثث فيها أيامًا

محددة. كانت عملية التحنيط تستغرق سبعين يومًا، إلا أنه كانت هناك وسيلة أسرع وأرخص، والواقع أن المحنطين كانوا يعرضون على أقارب الميت ثلاثة طرق ليختاروا منها ما يتلاءم مع حالتهم المالية، وكانت أكثر الطرق تكاليفًا هي الآتية:

كانوا يخرجون مخ الميت من أنفه بملقط من الحديد، وبذلك يخرجون جزءًا منه من الجثة، أما الجزء الباقي فكانوا يخرجونه بواسطة العقاقير، وبعد ذلك يستخدمون حجرًا حبشيًا حادًا في إحداث قطع في الجنب يخرجون الأمعاء منه، وبعد تنظيف الجثة وتطيرها يملؤونها بمواد الميرة والكاسيا وغيرها من العطور، ثم يعيدون خياطة الفتحة، وبعدئذ يغرقون الجثة في حمام النطرون حيث تبقى فيه سبعين يومًا لا أكثر.

وبعد انتهاء هذه الفترة يخرجون الجثة ويغسلونها ويلفونها بأشرطة من الكتان الرفيع، ويستعملون الصمغ للصقها، وبذلك تنتهي عملية التحنيط، ويتسلم أقارب الميت الجثة ليصنعوا لها تابوتًا خشبيًا على شكل جسم الإنسان، ثم يضعون الجثة في التابوت ويدفنوها في المقبرة.

أما الطريقة الأرخص فكانت تقضي بإعداد الجثة على النحو التالي: يملأ عمال التحنيط محاقنهم بزيت الأرز، ويملؤون الجثة كلها بهذا الزيت دون أن يحدثوا بها أية قطوع أو يزيلوا الأمعاء، ولكنهم كانوا يحقنونها من الشرج، ثم يسدونه لمنع تسرب الزيت، وبعدئذ يغرقون الجثة في حوض مملوء بالنطرون لمدة ٧٠ يومًا.

وفي اليوم الأخير يعيدون فتح الشرج، فيخرج زيت الأرز الذي سبق أن حقنوا الجثة به، وتخرج معه الأمعاء والأعضاء الداخلية بعد ذوبانها، كذلك يذيب النطرون اللحم فلا يتبقى من الجثة غير العظم والجلد، ثم تعاد الجثة إلى أقارب الميت لدفنها.

والطريقة الثالثة وهي أرخصهما جميعًا، فهي إنهم كانوا –بعد غسل الجثة بسائل مطهر– يغرقونها في حمام النطرون لمدة سبعين يومًا ثم يعيدونها إلى أسرة الميت لدفنها.

هذا هو الوصف الذي قدمه هيرودوت لعملية التحنيط في القرن الخامس قبل الميلاد، ولكن هذه الطرق كانت تقليدية، بدئ باستعمالها قبل ذلك بآلاف السنين، فقد حفظت جثث رجال ونساء الأسرة الثامنة عشرة على هذا النحو.

وبينما كان رخماير وزوجته يصعدان المنحدر في طريقهما إلى المقبرة، مر بهم موكب جنازة، فأفسحا الطريق للقادمين، فجاء أولًا خدم يحملون أباريق من المرمر تحتوي على طعام ودهانات ثمينة، وبعدهم رجال يحملون صناديق خشبية طويلة مملوءة بحلي الميت وثيابه.

وفي أثرهم جاءت زلاقة يجرها رجلان، بداخلها أباريق وضعت بها الأمعاء المحنطة التي أخرجت من الجثة. وأمام الزلاقة سار كاهن كان يرتل بصوت عميق، بينما رافق كهنة آخرون الجثة نفسها، وكانت موضوعة على

عربة، ومن وراء العربة سار أقارب الميت وأصدقاؤه والندابات، وكن يلطمن الخدود ويطلقن صرخات مروعة.

وظل الوزير وزوجته يتأملان الموكب إلى أن غاب عن بصرهما، ثم أشار الوزير إلى الخدم، فحملوا المقعدين وانطلقوا بهما في الممر شديد الانحدار المؤدي إلى مدخل مقبرة الوزير.

كان أمام المقبرة فناء اتساعه ٦٠ قدمًا يطل على باب المقبرة المستطيل، وكان كبير العمال في استقبال الوزير وزوجته. فلما رآهما سجد أمام مولاه حتى لامست جبهته الأرض، ثم نهض ووقف جانبًا باحترام ريثما يدخل الوزير وزوجته إلى المقبرة.

ونظرًا لأن الوقت كان مبكرًا، فقد نفذت أشعة الشمس والضوء إلى الداخل، وانعكست أشعة الشمس على مرايا من البرونز موضوعة بزوايا معينة فازداد الضوء في الممرات. كانت المقبرة على شكل حرف T يمتد ضلعه الأطول من المدخل في بطن التل حوالي ١٠٠ قدم، وكان هذا الممر أشبه بالنفق، منخفضًا نسبيًا عن الباب، ولكن سقفه يرتفع تدريجيًا إلى أن يصل إلى ارتفاع كبير عند نهاية الممر.

وفي هذه النهاية –وأسفل السقف مباشرة– يوجد محراب به تمثالان بالحجم الطبيعي لرخماير وزوجته، وقد أحاطت مريت خصر زوجها بذراعها في حنان، وكان منظر التمثالين مفزعًا، وبالأخص في تلك اللحظة التي سقطت أشعة الشمس عليهما فيها. وفي الجانب البعيد من الردهة كان

العمال يلونون الرسوم التي صممها الرسامون، بينما كان غيرهم ينقشون الرموز الهيروغليفية التي تشرح كل رسم.

وبينما كانت مريت تتأمل تمثالها بعين فاحصة، راح زوجها يقرأ النصوص المكتوبة أسفل الصور، وهي الرسوم التي استقينا منها مادة هذا الكتاب. وحينما وقع بصر مريت على الرسم الذي يمثل رسل الشعوب المقهورة وهم يقدمون الجزية لفرعون، تنهدت وقالت: لشد ما أعجب أين سنموت الآن. فأجاب زوجها –وكان يتقدمها للخروج من المقبرة–: إنه يعبر الدلتا الآن.

ذلك لأن سنموت استطاع –بمساعدة رخماير–أن يحصل على منصب سفير في جزيرة نائية، لم يرَها غير القلائل من المصريين، فقد أدرك الضابط القلق أنه أصبح عاجزًا عن إرضاء حبه للمغامرة والاشتراك في المعارك، فسعى إلى إيجاد متنفس آخر لإشباع حبه للسفر؛ ولهذا كان حينذاك في طريقه إلى أرض كيفتوي، حيث يغلب على الظن أن مصر لن تراه ثانية.

وإذ خرج الوزير وزوجته من المقبرة جلسا فوق مقعديهما، فحملهما الخدم هابطين بهما في الطريق إلى شاطئ النهر. وعندما ركبا القارب، تطلع رخماير إلى الشاطئ وتأمل العلامة التي تركها ماء النهر المنحسر، فأومأ برأسه ناحيتها وقال لمريت: لقد بدأ منسوب النهر في الانخفاض.

وبدأ القارب ينساب فوق صفحة الماء وكانت الريح رخاء، فجلس الوزير فوق مقعد مريح، وتطلع عبر النهر إلى المدينة. أدرك أن الدورة

السنوية ستبدأ عما قريب، وأن الحقول لن تلبث أن تظهر ثانية حينما ينحسر الماء عنها، فيبادر الفلاحون بنثر البذور، وبعد فترة تتحول البقعة السوداء إلى بقعة خضراء، وعندما يحين موعد الحصاد يبادر الفلاحون بجمع المحصول.

وتنهد الوزير وسرح بخاطره لحظات، كانت الحياة تبدو جميلة في تلك اللحظة، ولكنه لم يستطع أن يتجاهل المستقبل، لقد أعد للمستقبل عدته، أعد منزل الأبدية الذي ستأوي إليه جثته وروحه لاستئناف الحياة من جديد، ومد يده وأحاط كتفي زوجته بذراعه في حنان.

نعم، لقد أحسنت الحياة إليه، منحته أولادًا كثيرين، ارتفع بعضهم إلى مناصب مرموقة وحظوا بعطف فرعون، أما هو فقد خدم الملك بإخلاص، وتفانى في خدمة بلاده، وسيظل يخدمها بأمانة، ويخدم شعبه ويقضي بينه بالعدل، إلى أن يلفظ أنفاسه الأخيرة وهو مستريح البال رضي النفس.

انتهى

الفهرس